14 me Année No. 686

Lundi—26—8—1946

# الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٦ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٩ رمضان سنة ١٣٦٥ — ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

*مما زيد على كتابنا (فى أصول الأدب) :*

## الجـــاذبية فى القصص

الجاذبية هى الشوق الذى يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه ويربط السامع أو القارئ بموضوع القصة أو الرواية . ومبعث هذا الشوق اختيار الموضوع المفيد أو الطريف ، واصطناع الأسلوب الخالب والصور البراقة والنوادر الممتعة والحوار القصير السديد . وأثر هذه الجاذبية إما أن ينال الذهن أو المخيلة أو الوجدان.

فجاذبية الذهن أن يكون القصص مبعثاً للنور ومصدراً للمعرفة وداعياً إلى التفكير ، كالجاذبية التى تحسها وأنت تقرأ تاسيت أو ابن خلدون . ومثل هذه الجاذبية تكون فى القصص التاريخى دون القصص الشعرى ، لأن الأول أساسه التعليم والإقناع ، والثانى أساسه التأثير والإمتاع .

وجاذبية المخيلة تكون بتصوير مناظر الطبيعة للنفس وجلاء ألوانها للعيون ، بالوصف الصادق والأسلوب القوى ؛ ولكن هذه الجاذبية إذا لم تقترن بأخرى لا تلبث أن تبوخ وتضعف ، فإن النفس لا تعلق إلا بما ينيرها أو يثيرها ، فإذا لم تهتز للقصص فلا أقل من أن تستفيد منه

أما جاذبية الوجدان ، فأن يحرك القصص فى نفسك عوامل الألم أو اللذة ، ويثير فى حسك عواطف الحنان والقلق والدهش والهول والعزاء ، ويذيقك لذة الشعور بأنك حساس ؛ وهذه أمتع اللذائذ جماء . لذلك كانت جاذبية الوجدان أقوى من أختيها ، فهى تغنى عنهما وهما لا تغنيان عنها . ولو تأملت فى هذه الأحاديث (الحواديت) التى سايرت الإنسانية من جيل إلى جيل ، وتذكرت فعلها الساحر فى قلبك وأنت صغير ، وجمال ذكراها فى نفسك وأنت كبير ، لعلمت أن سر حياتها وقوتها ولذتها هو أن جاذبيتها من هذا النوع.

وأحسن القصص وأجوده ما اشتمل على أنواع الجاذبية الثلاثة . وشرط الجاذبية أن تتدرج فى أجزاء الموضوع فتبدأ ضعيفة ثم تنمو كلما نما العمل وتعقد الحادث حتى تنتهى مع الحل وقد استراح السامع ونقع نفسه . ومن ثم كان حقاً على الكاتب ألا يبوح فى البداية بما سيحدث فى النهاية ، وإلا أخطأه التوفيق وفاته التشويق وأعوزته الجاذبية . وإذا عرفت أن قوام الجاذبية فى القصص هو حسن تدرجها فيه ودقة توزعها فى مناحيه ناسب أن نعرض هنا إلى عناصره فنقول :

عناصر القصص الأساسية ثلاثة : العرض ، والتعقيد ، والحل:

فالعرض يقوم بإعداد ذهن القارئ أو السامع إلى موضوع القصة أو الرواية أو الملحمة ، فيصف مكان الحادث وزمانه ،

ويُعرّف الأشخاص وأخلاقهم ، ويذكر الحوادث التى سبقت القصة إذا كان هناك داع إلى ذلك . وقد يطول أو يقصر على حسب الموضوع ، ولكن أخص صفاته أن يكون سريعاً إلى الغرض ربئاً من القدمات ، واضح المنهج ، سالماً من الحشو والتكلف ، داخلا فى الموضوع ، خارجاً منه خروج الزهرة من الساق كما قال شيشرون . أما طريقته فتختلف باختلاف الحادث والظروف : فطوراً يلقى الكاتب بالقارئ فى الموضوع دفعة واحدة ، ثم يسوق الحوادث الأولى ببراعة ودقة ؛ وطوراً يبتدئ منفجراً بعاطفة مكظومة منذ طويل ؛ وقد يبتدئ بحكمة بليغة ، أو مثل سائر ، أو رسم طبوغرافى مشوق ، أو وصف تاريخى ممتع . والعبقرية الخالقة لا تُرسم لها الطرق ولا توضع لها القيود .

***

والتعقيد هو جسم القصة ، أو الموضع الذى تشتد عنده الجاذبية ، وتشتبك الحادثة ، وتمتزج الوقائع والأشخاص والظروف ، حتى يُشكل على القارئ الأمر ويعمى عليه الخبر فلا يعرف منه مخرجاً ولا يدرى له نتيجة . فخاصته كما رأيت تقوية الجاذبية وتنميتها ؛ ولا يتسنى ذلك للكاتب إلا إذا أسدل على النهاية حجاباً شفافاً ، ووقف القارئ بين الرجاء والخوف ، وجانب التطويل الذى يعوق سير العمل ، واحتفظ للنهاية بسرور المفاجأة أو دهشة الفجيعة

***

والحل هو الجزء الأخير الذى يبرم فيه الشوق وتحل العقدة وتظهر النتيجة . ولا بد أن يكون كل ما سبقه مهيئاً له وسائراً إليه ، دون أن يعلنه أو يدل عليه . فإن القارئ إذا حزره قل شوقه إليه وانقطع اهتمامه به . والشرط الأساسى لإجادة الحل ألا تزيد عليه ، لأن السامع إذا علم ما كان يجهله ، وأدرك ما كان يشغله ، قرت نفسه وخمد نشاطه ، فلا يريد أن يعلم شيئاً

ومن أحسن المثل على دقة التعقيد وبراعة الحل قطعة من كتاب «الشهداء» لشاتوبريان سيد كتاب فرنسا يصف بها مقتل الشهيد « أودور» ، وقد حمل نفسه على أن يتجرع الغصة الأخيرة من عذابه الأليم دون أن يرتد عن دينه ، ولا أن يتزحزح عن يقينه ، حتى نمى إليه أن امرأته (سيمودوسيه) على وشك أن يحكم عليها القضاء بالعيش فى مواخير الفجور إذا هو لم يقدم القربان إلى الآلهة . كان حبه لزوجه فوق حبه لحياته ، فهل يكون حبه لربه فوق حبه لزوجه ؟ ذلك ما لا ندريه

« أغمى على أودور ، وأسرع الناس إليه ، والتف الجند من حوله ، واستولوا على الكتاب ، وطلب الشعب أن يُقرأ عليهم . فقرأه أحد النواب بصوت جهير . وظل الأساقفة سكوتاً والهين، والمجلس يعج بالضجيج والحركة . عاد أودور إلى رشده ، فرأى الجند بين يديه يصيحون به : « هلم يا رفيقنا ، قرب القربان ، وهذه أعلامنا تقوم مقام الهيكل » ، ثم قدموا إليه قدحاً مملوءاً بالنبيذ ليريقه[1] . فثارت فى قلب أودور عواصف الفتنة ، وتجاذبت رأيه عوامل الوساوس : كيف تصير «سيمودوسيه» إلى مواخير الفسق ؟ وكيف تصبح بين ذراعى « هيروقليس[2] » ؟ نفج الشهيد صدره ، وانكسرت آلة عذابه ، فسال دمه غزيراً ، فضج الشعب وجثا إشفاقاً عليه ورحمة له ، وأخذ يهيب به مع الجنود : « قرب القربان ! قرب القربان ! » هنالك قال أودور بصوت خافت متهافت : أين الأعلام ؟ فقرع الجنود تروسهم علامة الفلج والظفر ، وبادروا إلى أعلامهم فحملوها إليه . فنهض أودور يسنده حارس ، وتقدم حتى وقف أمام البنود ؛ وقد خشعت الأصوات وشمل السكون ، ثم تناول القدح فستر الأساقفة رءوسهم بفضل مسوحهم ، وصاح القساوسة صيحة الجزع . ولكن أودور رمى بالقدح ، وألقى بالأعلام ، والتفت إلى الشهداء وقال : أشهد أنى مسيحى ! ! »

فأنت ترى أن جاذبية قوية استولت عليك وأنت تقرأ هذه القطعة ؛ لأن عزم أودور ظل مجهولا حتى نهاية الأمر . فلما طلب الأعلام بصوت خافت وقع فى نفسك بعض ما وقع فى نفوس الشهداء والقسيسين من الضيق والحزن . حتى إذا أهاب به القساوسة إلى الواجب وألقى بالقدح وقال :« أشهد أنى مسيحى» تفرّجتَ من الهم وتنفّستَ تنفس الراحة !

أحمد حسن الزيات

(١) كان من عادة الشهداء أن يريقوا الخمر قبل تقديم القربان .

(٢) أحد القضاة الرومانيين فى عهد دقليانوس .

# أنـــا والاذاعة ...

للأستـــاذ على الطنطاوى

[ أذيعت من محطة إذاعة دمشق يوم الاربعاء ١٥ — ٨ — ١٩٤٦ ] .

أيها السادة :

إنى أشكو إليكم القائمين على هذه المحطة ، فقد ظلمونى وظلموكم معى . جاؤوا بى لأحدثكم ، فحسبت أنى سأدخل نادياً فيه ناس أراهم ، فأخاطبهم على قدر عقولهم ، فإن كانوا علماء كلّمتهم كلام العلماء ، وإن كانوا من العامة خاطبتهم خطاب العامة ، فإذا هم يصعدون بى درجاً بعد درج حتى إذا كلّت رجلاى من الصعود ، وهممتُ بالرجوع ، قالوا : قد وصلنا ، فنظرت فإذا نحن فى أعلى طبقة من (عمارة البرق والبريد) ، فتلفتُّ أنظر أين النادى الذى سأخطب فيه ؟ فما عهدت نادياً يبنى على رأس مئذنة ! وأين الناس ؟

وإذا هم يدخلوننى من دهليز إلى دهليز ، حتى انتهيت إلى زاوية مظلمة ، فأشاروا إلى باب ، وقالوا : (هُسْ) ، إياك أن تتكلم ، أو تعطس ، أو تسعل ، أو تخبط برجلك ، أو تدق بيدك ، أو تُخَشْخِش(١) بأوراقك ... !

فقلت : فكيف إذن أتحدث ؟ أتريدون أن يكون حديثى إيماء وإشارة من غير كلام على لغة الخرسان ؟

قالوا : لا ، ولكن إذا جاء دورك تكلمت

وفتح الباب ، ودخلنا إلى غرفة صغيرة كأنها الصندوق المغلق ، لا شباك ولا باب ولا نافذة ولا كوّة ولا شقّ لدخول الهواء ، ورأيت فيها مكتباً ما عليه إلا علبة قائمة على عمود من الحديد ووراءها مرآة ، وقد وقف أمامها شاب يصوّت أصواتاً بعضها يخرج من حلقه وبعضها من صدره وبعضها من بطنه ، ويتخلّع ويتلوّى مع النغمات ، وقد يأتى بكلمات يلقيها إلقاء بلا نغم ، ووراءه رفاق له يضربون بأعوادهم ويزمّرون ، فأجهدت ذهنى خمس دقائق كاملات لأعرف ما ذا يصنع هذا الرجل : أيغنى أم يخطب ، أم هو مصروع معتوه يخلّط ، أم يتكلم بلسان أهل مالطة ، فلم أهتد إلى حقيقته ، ثم سكت ، وتقدم من العلبة أحد موظفى المحطة فقال : لقد انتهت الحفلة الموسيقية ...

فقلت : إذن هى حفلة موسيقية ؟ !

سبحان القادر على كل شىء !

وأقبل الموظف علىّ ، فأشار بيده إلى حيث كان يقف الشاب صاحب الأصوات المخنثة ، فقلت : ما ذا ؟ أأعمل أنا أيضاً حفلة موسيقية ؟

قالوا : هسْ ! هسْ !

وأدار مفتاحاً كمفتاح الكهرباء ، وجعل يكلمنى بلسانه بعد أن كان يتكلم بيديه . وقال : تفضل يا أستاذ ، اقعد وتكلم !

قلت : أتكلم مع من ؟ أين الناس ؟ أين المستمعون ؟ !

قال : تكلم هنا ... وأشار إلى العلبة

قلت فى نفسى : أعوذ بالله من شر هذه الغرفة ! لقد حسبتها سجناً مغلقاً ، فإذا هى مارستان ! أأكلم علبة ؟ أمجنون أنا ؟ ونظرت فى المرآة فوجدت صورتى متغيرة ...أهذا أنا ؟ وأنعمت النظر ، فإذا الذى حسبته مرآة لوحُ زجاج بيننا وبين الغرفة الأخرى ، فنحن نرى من فيها ، ولكن لا نسمع أصواتهم ، فاجتمعت علىّ هذه الليلة المتناقضات : هنا أشخاص أراهم ولا أسمع أصواتهم ، وهنالك صندوق تخرج منه أصوات أسمعها ولا أرى أهلها ، وبحثت عن مهرب فلم أجد ، وفتشت عن نصير فلم ألقه ، وما حولى إلا شباب جدد ، وموسيقيون معهم أعوادهم ، وأنا الشيخ ... الوحيد ... فى هذه العصبة ، بعمامتى و ... وكدت أقول ، ولحيتى ، ثم ذكرت أنى تركت اللحية عند الحلاق ... !

فاستسلمت للمقادير ، وقعدت ، والعرق يسيل على عنقى ووجهى ، وشرعت أكلم العلبة كالمجانين ، خوفاً من أن يحل بى هذه الليلة ما هو أعظم !

نعم : لقد ظلمت ، أيها السادة ، وظلمتم معى ، لأن أكثركم يؤثر (عتابا) بلدية ، أو (قرّادية) نقدية ، أو أغنية شاكية باكية ، ميّتة مميتة ، لا شرقية ولا غربية ، من أغانى عبدالوهاب

(١) من العامى الفصيح

على كل ما فى الدنيا من محاضرات ، ولكنكم تستطيعون أن تديروا مفتاح الرادّ ، فتتخلصوا منى ومن محاضرتى ، وتبعثوا إلىّ بما يوحيه إليكم نبلكم وكرمكم من الشتائم واللعنات التى لا أسمع منها شيئاً ، ولكن المصيبة علىّ أنا ، لقد حُبست فى مارستان ، لا أخرج منه حتى أكلم علبة من حديد ربع ساعة لا تنقص ثانية ولا تزيد !

فلنستعن بالله ، ولنتحدث ...

ولكن خبرونى أولا : هل تسمعون كلامى حقيقة ؟ !

أما أنا فلا أصدق أنكم تسمعون منى ، وكيف يسمع من هو فى المهاجرين وحمص وحلب والقاهرة وطهران ما لا يسمعه هذا الأخ الجالس أمامى وراء الزجاج ، والذى يبدو عليه أنه لا يدرى ما ذا أقول ، فلا يبتسم ، ولا يعبس ، ولا يفتح عينيه ، ولا يرفع حاجبيه ، ولا يصنع شيئاً يدل على أنه سامع ، وهذا من نعم الله علىّ ، فلو سمعنى أتكلم عنه لما نجوت منه بسلام !

فإذا كنتم تسمعون ( يا سادة ) كلامى ، فأشيروا إلىّ ، أو صفقوا ، أو قربوا أفواهكم من ( الرادّ ) وصيحوا — إنى انتظرت فلم أسمع صيحتكم ، فلم يبق إلا أن أصنع كما صنع زميلنا المحترم ( جحا ) ، حين أذّن ونزل من المنارة يعدو ، قالوا : إلى أين يا جحا ؟ قال : أريد أن ألحق صوتى فأنظر إلى أين وصل ؟

ولنفرض أنكم سامعون ، فبمَ أحدثكم ؟ ومن لى بالحديث الذى يرضيكم جميعاً : العالم منكم وغير العالم ، والرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، وأى معلم يستطيع أن يلقى درساً واحداً يفهمه تلميذ المدرسة الأولية وطالب الجامعة ومن بينهما ويرضون عنه ويعجبون به .

لقد فكرت طويلا ، وحشدت قوى نفسى كلها ، وما تعلمت من علم وما حفظت من مسائل ، لآتيكم بحديث يدهشكم حتى تقولوا : ما شاء الله كان ! ما هذه المحاضرة ؟ شىء عظيم جداً ، ولكنى لم أستقر على موضوع ...

قلت : الدنيا الآن فى رمضان ، وخير الأحاديث حديث الدين ، وما أسهل الكلام فى الدين فى هذه الأيام وما أيسر أن يجعل المرء نفسه مجتهداً ، وأن يرى الرأى المخالف لأبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل والليث بن سعد والأوزاعى ، وكل مجتهدى الأرض فيتمسك به ويخطّىء المخالفين له : من كان منهم ومن سيكون إلى يوم القيامة . ولم لا ؟ إنه رجل وهم رجال ، والساعاتى والنجار والموسيقى رجال أيضاً ، فلما ذا لا يكونون أئمة مجتهدين ، ما دام العلم بالعربية نحوها وصرفها وبلاغتها ، والفقه أصوله وفروعه ، والتفسير والحديث ليس شرطاً فى الاجتهاد؟

وما دامت الحكومة تمنع غير الطبيب أن يكتب صفة دواء ، وغير المهندس أن يرسم مصور بناء ، وتدع من شاء يتكلم فى الدين والأدب بما شاء ؟ وما دام كل ما يحتاجه الرجل فى هذه الأيام ليكون واعظاً مرشداً يقتدى به ويستمع لقوله ، وتقبل يده ويُتمسحُ بذيله ، أن يعرّض لحيته ، ويكوّر عمته ، ويوسع جبته ، ويطوّل سُبحته ، ويتكلم كلاماً تقبله العامة ، ولوخرّف وخلّط وضلّل ، وأكل الدنيا بالدين ، واستغل غفلة الغافلين ، لا يسأله سائل عما يفعل أو يقول !

لا ... لن أتكلم فى الدين ، فالكلام فيه شديد الخطر ، فأنا أخشى أن أقول الحق فأغضب الناس ، أو أقول الباطل فأسخط الله . ثم إنى طلبت الليلة مَرْضاة السامعين ، وأكثر السامعين لجهلهم بالدين ، ولطول ما رأوا من أدعياء العلم فيه ، منصرفون عنه زاهدون فى حديثه ، حتى الأتقياء الصالحون منهم ، الذين يتمسكون فى رمضان بدينهم ، فيقضون نصف النهار فى (الأموى) نائمين يشخرون وينخرون[(١)] أو متحلقين حلقاً يمزحون فى الجامع ويضحكون ويكذبون ويغتابون !

فلنتكلم فى الأدب ، فالأدب أسلم عاقبةً ، وأوسع حريةً ، وهو هيّن علىّ وعلى غيرى ، وقد صار الأدب الآن كوصل ليلى كلٌّ يدّعيه ، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً فى ورقة ، ويجد صفافاً يصفُّ له حروفه ، وصاحب جريدة ينشره ، فهو كاتب بليغ ، وكل من يأتى بلفظ موزون أو شبه موزون فهو شاعر مُفلق ، وكل من يحفظ خبراً عن أبى تمام والمتنبى ، أو هوغو ولامارتين ، أو شكسبير وملتون[(٢)] ، فهو أديب أريب ، وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أو بباطل فهو ناقد محقق ، ومن عجز عن أن يفكر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام ، وتكلم كما

(١) من النامى الفصيح .
(٢) لأن المودة تحولت بعد الجلاء من باريس إلى لندن

لقد اشتغلت بها حيناً ، وأنا أستطيع أن أتفلسف متى أردت ، ولا يكلفني ذلك إلا أن أقول ما لا أفهمه أنا ولا القراء ، وأن أنظر كل ما تواضع عليه الناس من أفكار وعادات ، فأقيم لهم أدلة غامضة لا تدرك ، على أنه خطأ وأن الصواب هو عكسه !

وبعد — يا أيها السادة — فاعلموا أن وقت حديثي قد انتهى ، وأني قد خدعت القائمين على المحطة ، فأطعتهم وكلمت العلبة ربع ساعة ، وقبضت الأجرة ، ولم أقل شيئاً . وكذلك يكون الرجل الناجح في هذه الأيام ، يأخذ الأجرة من غير عمل ، ولنا في ساداتنا العلماء الأعلام مدرسي دائرة الفتوى قدوة غير حسنة ...

هذا ، وأنا لا أدري هل يدفعون لي أجرة ، أم أنهم سيكتفون بشكري الجزيل ... فإذا أعطونا شيئاً ربحناه ، وإلا فحسبنا أننا لم نعطهم شيئاً نندم عليه !

ولا تعجبوا — يا سادة — فكل الناس تاجر يعرض بضاعته ، ونحن معشر الأدباء بضاعتنا الكلام ، وكل كلام له ثمن ، فهاتوا كثيراً تسمعوا جيداً ، وإلا فالبضاعة كلها من هذا النوع !

(دمشق) **علي الطنطاوي**

صور من العصر العباسي :

# الخلفاء العباسيون والتجسس

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ٢ —

وثمة خليفة آخر أولع ببث العيون ، وتسقط الأخبار ، حتى على وزرائه وخاصته ، وهو المعتضد . وقد أورد التنوخي قصة تدل على مبلغ شغف هذا الخليفة بالتجسس ، ومهارة المتجسسين في ذلك العصر . فقد كان القاسم وزيره يحب الشرب واللعب ، ويخاف أن يتصل بالخليفة خبره فيستنقصه وينسبه إلى الصبوة والتهتك والتشاغل في اللذات عن الأعمال . وكان لا يشرب إلا على أخفى وأستر ما يكون . فخلا يوماً مع جوار مغنيات ، ولبس من ثيابهن المصبغات ، وأحضر فواكه كثيرة وشرب ولعب من نصف النهار إلى نصف الليلة الأخرى ، ونام بقية الليلة ، وبكر إلى المعتضد للخدمة على رسمه ، فما أنكر شيئاً . وبكر في اليوم الثاني ، فحين وقعت عين المعتضد عليه قال له : يا قاسم ، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خلوتك وألبستنا معك من ثيابك المصبغات ؟ فقبّل الأرض وروى عن الصدق ، وأظهر الشكر على هذا التبسط ، وخرج وقد كاد يتلف غماً لوقوف المعتضد على هذا القدر من أمره ، وكيف لا تخفى عليه مواقفه . فجاء إلى داره كئيباً ، وكان له في داره صاحب خبر يُقال له خالد يرفع له أمورها ، فأحضره وعرّفه بما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : إن بحثتَ لي عمن أخرج هذا الخبر زدتُ في رزقك وأجزتك كذا ، وإن لم تعرفه نفيتُك إلى عُمان ، وحلف له على الأمرين . فخرج صاحب خبره من حضرته متحيراً كئيباً لا يدري ما يعمل ، وأخذ يفكر ويحتال ويجتهد . قال صاحب الخبر : فلما كان من الغد بكرتُ إلى دار القاسم زيادة تبكير على ما جرى به رسمي لفرط سهري وقلق تلك الليلة ومحبتي للبحث ، فجئتُ ولم يُفتح باب دار القاسم بعد . فجلست . فإذا برجل يزحف في ثياب المكدين ومعه مخلاة كما يكون مع المكدين . فلما جاء

يتكلمون ، ففكر تفكيراً غير آدمي ، وتكلم كلاماً ليس بإنساني ، فهو شاعر رمزي ، وإن في الرمزية متسعاً لجميع الأغبياء والأدعياء . وإذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي ، فالقراء جاهلون رجعيون جامدون !

لا — يا سادة — إن الأدب امتُهن وابتُذل ، فلن أتكلم في الأدب !

أفأتكلم في السياسة ؟ إن السياسة في بلدنا أن ينتقد الرجل قوانين الحكومة ، ويتكلم في رجالها ، ويتهم كل أمين يكرهه بالسرقة ، ويصف كل سارق يحبه بالأمانة ، ويكون له رأي في الملك عبد الله ، وابن السعود ، واتلي ، ومولوتوف ، وترومان ، ويرسم أحسن الخطط لمحاربة الغلاء ، وتنظيم ملاكات الموظفين ، وحل مشكلة فلسطين ، وإدارة ألمانيا المحتلة ، ويقترح وجوه الإصلاح للجامعة العربية ، وهيئة الأمم المتحدة ، ولو كان تاجراً أمياً ، أو سائق ترام ، أو شيخ ضيعة ، يضع بصمة إبهامه مكان التوقيع على دفاتر الانتخابات !

لا ... لن أتكلم في السياسة ، أفأتحدث إليكم في الفلسفة ؟

إلى الباب جاس حتى فُتح ، فسابقنى إلى الدخول ، فأولع به البوابون وقالوا : أى شىء خبرك يا فلان ؟ وصفعوه فمازحهم وطايبهم وشتمهم وشتموه ، وجلس فى الدهليز فقال : الوزير يركب اليوم ؟ قالوا : نعم… الساعة يركب . قال : وأى وقت نام البارحة ؟ قالوا : وقتَ كذا . فلما رأيتُه يسألُ عن هذا تمّنتُ أنه صاحب خبر ، فأصغيتُ إليه ، ولم أرهم يحفلون بأمره .

وهو لم يدع بواباً ممن وصل إلى الوزير وممن لم يصل إلا سأله عنه ، وكان يبدأه بأحاديث أخر على سبيل الفضول ، ثم زحف فدخل إلى جنب أصحاب الستور ، فأخذ معهم فى مثل ذلك ، وأخذوا معه فى مثله . ثم زحف فدخل إلى دار العامة . فقلتُ لأصحاب الستور : من هذا ؟ قالوا : رجل زَمِنٌ فقير أبله طيب النفس ، يدخل الدار ، ويتطايب ، فيَهب له الغلمان والمتصرفون . فتبعتُه إلى أن دخل المطبخ فسأل عما أكل الوزير ، ومنْ كان معه على المائدة ، وفى أى شىء أفاضوا ، والطباخ وغلمان صاحب المائدة كل واحد يخبره بشىء ، ثم خرج يزحف حتى دخل حجرة الشراب ، فلم يزل يبحث عن كل شىء ، ثم خرج إلى خزانة الكسوة ، فكانت حالته وصورته هذه . ثم جاء إلى مجلس الكتاب فى الديوان ، فأقبل يسمع ما يجرى ، ويسأل الصبى بعد الصبى ، والحدث بعد الحدث ، عن الشىء بعد الشىء ، ويخلط الجد بالمزاح والتطايب بكلامه والأخبار تنجرّ إليه ، وتتساقط عليه ، والقطع تجيئه وهو يملأ تلك المخلاة ، فلما فرغ من هذا أقبل راجعاً . فلما بلغ الباب تبعتُه ، فرجع حتى جاء إلى موضع من الخلد فدخل إليه ، فوقفت أنتظره ، فإذا هو بعد ساعة قد خرج بثياب حِسانٍ ماشياً … فتبعتُه حتى جاء إلى دارٍ قرب دار الخادم الموكل بحفظ دار ابن طاهر فدخلها ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه دار فلان الهاشمى ، رجل متجمّل . فرصدته إلى وقت المغرب ، فجاء خادم من دار ابن طاهر فدق الباب ، فكلمه من خوخة له ، فصاح به ، ورمى إليه برقعة لطيفة ، فأخذها الخادم وانصرف . فبكرت من سحر إلى الدار التى فى الخلد ، ومعى غلمان ، فإذا أنا بالرجل قد جاء بزيه الذى دخل به داره ، فكبستُه فى الموضع ، فإذا هو قد نزع تلك الثياب ولبس ثياب المكدين التى رأيتها عليه أولا ، فحملته وغطيت وجهه وكتمتُ أمره حتى أدخلته دار القاسم ودخلتُ إليه وقصصتُ عليه الخبر .

فاستدعاه وقال : لتصدقّنى عن أمرك أو لا ترى ضوء الدنيا ولا تخرج من هذه الحجرة . قال : تؤمننى ؟ قال : أنت آمن . فنهض وقال :

« أنا فلان بن فلان الهاشمى ، رجل متجمّل ، وأنا أتخبّر عليك للمعتضد منذ كذا … ويُجرى علىّ المعتضد خمسين ديناراً فى الشهر ، أخرج كل يوم بالزى الذى لاينكره جيرانى ، فأدخل داراً فى الخلد بيدى منها بيت بأجرة ، فيظن أهلها أنى منهم ، ولا ينكروننى لزيى ، فأخرج هناك بهذه الثياب وأتزامن من الموضع ، وألبس لحية فوق لحيتى مخالفة للونى ، حتى لا يعرفنى من يلقانى فى الطريق ، وأمشى زحفاً إلى دارك ، فأعمل جميع ما عرفت ، وأقتنى أخبارك من غلمانك ، وهم لا يعرفون غرضى ، ويُخرجون لى بالاسترسال ما لو بُذل لهم فيه من الأموال الكثير لم يُظهروه ، ثم أخرج إلى موضع من الخلد فأغيّر ثيابى ، وأعطى ما اجتمع معى فى المخلاة للمكدين ، وألبس ثيابى الحسان ، وأعود إلى منزلى ، فإذا كان المساء جاءنى خادم من خدم ابن طاهر مندوب لهذا ، فأرمى إليه برقعة فيها خبر ذلك اليوم ولا أفتح له باباً ، فإذا كان آخر الشهر جاءنى فأعطيته الرقعة ويعطينى الجائزة …! »

قال صاحب الخبر : فحبسه القاسم أياماً فحسبه أهله أنه مات ، فأقاموا عليه المآتم ، فدخل القاسم على المعتضد فقال له : ابراهيم الهاشمى النزاى ، بحياتى أطلقه وأحسِن إليه .. وأنتَ آمن من بعدها من أن أنصب عليك صاحب خبر

فتركه القاسم ، وانقطعت أخباره عن المعتضد(١)

فهذه قصة رائعة طريفة تدلك على مبلغ حبّ المعتضد تسقط الأخبار ، ومبلغ مهارة أهل ذلك العصر فى الحيلة والبراعة فى التجسس ، وهى قصة لا تحتاج إلى تعليق ، فما قرأت فى بابها فى كتبنا القديمة أشوق منها ولا أحلى

ومن هذه القصة ، ومن الأخبار التى سردتها لك فى العدد الماضى — من قبل — ترى ما كان للتجسس من شأن عند الخلفاء العباسيين . أما عناية الوزراء بالتجسس وتحسس الأخبار ، فسأبينه فى مقال آت

جديدا ( لبنان ) **صلاح الدين المنجد**

---

(١) انظر الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٩٣ وما بعدها .

إلى المجمع اللغوى :

# الأسماك فى الشواطئ الحضرمية

للأستاذ على عبود العلوى

تمهيد :

لا شك أن وجود الأسماك بكثرة فى الشواطئ الحضرمية هو الحافز الأعظم لبعض مفكرى الحضارمة فى السعى وراء تأسيس شركة تجارية بمهجر الحضارمة ( جاوة ) من غايتها استغلال الثروة الوطنية وتنميتها بإنشاء مصنع لحفظ الأسماك فى العلب وتصديرها فيما بعد إلى الخارج .

ولا غرو أن يهتم بالسفر إلى ميناء حضرموت ( المكلا ) رئيس الشركة السيد على بن شهاب لدرس ما يقتضيه المشروع ورفع تقرير لأعضاء الشركة . غير أن المشروع أخفق فى مسعاه ولا أعرف بالضبط ما هى الأسباب الموجبة لذلك .

وتاريخ هذه الخطوة التفكيرية الأولى يرجع إلى أثناء الحرب الماضية حرب ( ١٩١٤ م ) على ما أذكر[1] .

ولئن أخفق هذا المشروع فإنه لم يقض على الفكرة أصلا . وغاية ما فى الأمر أنها تنبعث مرة وتخفت أخرى . حتى دبّ إلى النفوس خبر انعقاد مؤتمر الإصلاح الحضرمى المنعقد بسنغافورا فى سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٧ فانبعثت الفكرة مرة أخرى ، ولكن فى صورة واسعة النطاق . إذ وافق المؤتمر على تأسيس شركة تجارية حضرمية برأس مال كبير من غايتها استغلال الثروة الوطنية ، ورشح لهذا القرار لجنة تتألف من أغنياء الحضارمة وسراتهم برئاسة المثرى الشهير السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف . غير أن مقررات المؤتمر قضى عليها بجرة قلم ولم تكن هى من نصيب بحثنا لنوليها مزيداً من البحث والتعليل والتدليل .

ودليل آخر أضيفه إلى ما سبق أن أشرت إليه فقد حدثت بعد عودتى إلى الوطن من الكنانة فى ١٩٤٢/٨/١١ من رحلتى التى استنفدت من العمر زهاء خمس عشرة سنة أن عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى معتزم إنشاء حوض كبير لتربية الأسماك والاستفادة منها علمياً .

فمتى يتحف عظمة السلطان شعبه الحضرمى بهذه المكرمة الجليلة التى لم تكن هى إحدى مكارمه ؟ فعسى أن يكون ذلك قريباً .

معجم للأسماك :

واغتنمت فرصة وجودى فى ( المُكلاّ ) للتعرف إلى أبناء الثغر الحضرمى ، وقد لقيت منهم تأهيلا كبيراً ، وممن تحدثت معه عن وضع معجم للأسماك الأستاذ عبد الله الناخبى فهش للفكرة — وقال : إن نفس هذه الفكرة قد سبق أن أوحى بها إليه عظمة السلطان صالح القعيطى ، ومن أجل ذلك فإنه دائب فى البحث ، وأنه قد كتب مذكرة عن الأسماك تضم زهاء مائتين وخمسين اسماً .

ولا أزال أرجو من الأستاذ الناخبى أن يجد فى البحث لكى يتحف العالم العربى بثمرات أبحاثه .

غير أنى أخشى أن تقعد بالأستاذ الناخبى أعماله المدرسية وشواغله اليومية . فقد اتضح لى أنه طيلة المدة التى قضيتها فى حضرموت وهى سنة وثلاثة أشهر لم يقدر له أن يواصل البحث الذى سبق أن حدثنى عنه بشىء يذكر .

وقبل أن نتجه إلى الغاية المقصودة يجدر بنا الإشارة إلى أن للسيد الشاعر عبد الرحمن بن محمد بن شهاب الدين العلوى المتوفى فى حدود سنة ١٢٧٠ هـ قصيدة طويلة ضمنها أسماء الأسماك الموجودة بالشط الحضرمى ، ولم تقع هذه القصيدة تحت نظرى وإنما حدثت عنها وهى مشهورة بحضرموت وموجودة منها نسخ فى مهجر الحضارمة : جاوة ، ولن تخلو منها مكاتب حضرموت ، ولا شك أنها من محفوظات خزانة حفيده السيد الجليل عبد الرحمن بن عبد الله بن شهاب فى ( الفناء ترم ) .

فهل يتحف بها «الرسالة» القراء أحد أدباء القطر الحضرمى ؟

ومما وقع تحت نظرى له وأنا فى سن المراهقة قصيدته المشهورة التى وصف فيها المرأة وخصَّها بالمفاضلة ما بين البيض والسمر والخضر والسود .

(١) فى جريدة الاقبال التى كانت تصدر ( بسربايا ) جاوة — إشارة إلى هذا الخبر وهى لا تحضرنى الآن .

فياهل ترى وصف لنا الصهب والزرق إلى غيرذلك ؟ لا أدرى فذلك عهد طال به العهد ولم يبق عالقاً يبالى منه شيء .

ومن قصائده المشهورة فى المفاضلة قصيدته التى خصها بالنخل ويقال إنه ذكر فيها زهاء مائتين وخمسين اسماً من أسماء النخيل الموجودة بحضرموت .

ومما علق بذاكرتى منها قوله بصف نوعا من النخل يسمى باليتيمة :

وعادْ تمر اليتيمة ، يُعجبك خُزْعُهْ وصَنْيمهْ تقدُوْم لأهل التفخار . التخميس ( ماشيء كا التمرْ فى الدار ) .

( الألفاظ : عادْ . بمعنى بَقى . والخزْعُ من التمر ما أخرج نواه . الصَّنْيم : هو ما أخرج نواه أيضاً ، وهُرِس بالأرجل كما هو معروف فى حضرموت . أهل التفخار : هم الضيوف الذين يفدون على بيوت الكرم ممن يفخر بهم )

وأكثر أشعار هذا السيد ( حُمَيْنِيَّة ) أى أنه لم يلتزم فيها قواعد الإعراب ولها عروضها الخاصة لأنها تابع الأنغام .

وهذا السيد هو والد الشاعر الكبير شيخ النهضة الحضرمية أبو بكر بن شهاب ( راجع « الرسالة » الغراء عدد ٤٢٣ صفحة ١٠٠٧ ) ومؤلفنا عنه ( الشهاب العلوى ) .

وأخيراً أتاحت لى الفرص التعرف على أسماء جانب من الأسماك ، وذلك بفضل الرحلة الشاقة التى دفعت ثمنها بالمخاطرة الروحية .

إذ أقلتنى من ميناء حضرموت ( المكلا ) إلى ( جدة ) ساعية شراعية . حقاً إن هذه الرحلة شاقة مضنية ولكنها تذكرنا بآثار آبائنا الصيد الذين كانوا يخترقون البحار بمراكبهم الشراعية ، وكانت لهم السيادة البحرية إذ ذاك .

وكانت بواخرهم تقلع من موانى حضرموت إلى أقاصى الشرق الاقصى ، ولهم فى هذا الميدان تاريخ عظيم القدر مشهور بمكانته العظيمة ، ولهم مع البرتغال مواقف مشهورة ليس هذا موضع الحديث عنها .

وكان علماؤهم لا يدعون الأوقات تمر عليهم سدى فكانوا يحصلون العلم وهم فى أثناء سفرهم الذى يمتد بهم إلى أكثر من ستة أشهر إلى أن يصلوا إلى الموانى الشرقية بجزر الملايو وجاوة .

وفوق هذا فقد كانوا يقضون على السآمة التى تعقب مثل هذه الرحلات الشاقة بما يتفرغون له من دروس علمية أثناء سيرهم واستنساخ بعض الكتب العلمية التى هم فى حاجة إليها .

وعسى أن تتاح لى الفرصة فأوافى « الرسالة » الغراء ببحث خاص ذا صلة بالموضوع ، ومن كان متعجلا فليراجع ما ورد بهامش مقال لنا نشر فى عدد ٢٣٤ من مجلة الرابطة العربية تحت عنوان : خصائص الشعر فى عصر ابن شهاب أو يبل غلته بمراجعة تاريخ دخول الإسلام إلى ( الفليبين ) وهو من تأليف الدكتور نجيب صليب اللبنانى المتوفى سنة ١٩٣٥ ، وهو مطبوع فى اللغة الانجليزية طبع ( مينلا ) سنة ١٩٠٥ م

لقد كانت المدة التى قضيتها فى البحر من حين أبحرنا من ( المكلا ) بعد ظهر يوم الأحد فى ١٩٤٣/١١/٧ إلى أن أرست بنا السفينة فى ميناء ( جدة ) فى ١٩٤٣/١١/٢٥ هى الكفيلة بأن تتيح لى ما لم يكن فى الحسبان .

وكانت الدواعى التى تجعلنى أهتم بالبحث فى التعرف على أبناء اليم كثيرة ، ولو لم يكن منها إلا المتعة الغذائية التى يتحفنا بها اليم فى صباح كل يوم ومسائه لكانت هى وحدها كافية فضلا عن الناحية العلمية التى يجدر بنا أن نشارك فيها بحسب المستطاع .

لفتت نظرى هذه الأحياء العظيمة التى نشاهدها فى البحر فى كل آن ، وهى تمشى زرافات ووحدانا ، والتى منها ما يتحدى سفينتنا فى مجراها . فكاشفت ربان السفينة الحضرمية والبحارة وزملاؤهم أن لى شغفاً بالتعرف على هذه الأسماك مما شاهدنا وما لم نشاهد . فما كان منهم إلا أن أمدونى بهذه المعلومات التى أدونها « للرسالة » الغراء ، ولهم علىَّ فضل التنويه والشكر .

ولم يحجم أبناء البحر — أستغفر الله — بل أخدانه عن الحديث إلا ريثما أدون ما يفوه به المتصدى للحديث ، وكنت أدقق فى ضبط الألفاظ غاية التدقيق حتى إذا ما أشكل علىَّ لفظ استعدته مرة أخرى . هذا ما كان من جانبى ؛ أما ما كان من جانبهم فانهم كانوا مرهفين أسماعهم لحدثى . فإذا ما قدم أو أخر نبهوه إلى غلطه فى الحال .

فكانت لدى متعة روحية طيلة الساعتين التى قضيتهما فى العوم مع الأسماك .

( يتبع ) علي عبود العلوي

# وردة اليـــــازجى

للأستاذ يوسف يعقوب مسكونى

— ١ —

نحن جديرون بأن نعنى بمآثر الشاعرات العربيات من بنات قومنا فى القديم والحديث . فبهذه العناية نؤدى بعض ما لهن من الحق علينا فى مضمار الشعر واللغة، وضربهن بسهم وافر فى إظهار شعورهن نحو لغتهن وبنات أمتهن ، ومنهن الحديثات ممن تتبعن خطط سابقاتهن فنسجن نسيجاً يليق بنا أن نطلع القراء على ما يتيسر إيراده فى هذه المجالة فنحفظ لهن ذكراً باقياً حافزاً لغيرهن من النساء أن يسلكن هذا المسلك الظريف الطريف فيكن أوتاراً موسيقية لأبناء الجيل وبناته . وهذه الشاعرة وردة بنت الشيخ ناصيف اليازجى من شاعرات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . كان أكثر شعرها رثاء وذلك للنكبات التى حلت بهذه الشاعرة المسكينة فانهالت عليها كالسهام لأنها نكبت بكل إخوتها وأختها وأبيها وابنها وابنتها وزوجها. فبكتهم بكاء الخنساء على إخوتها وأولادها ، وحذت حذوها فى نسق الرثاء وذكرتها مراراً فى قصائدها المملوءة من النواح ، وهذا ديوانها « حديقــة الورد » طافحاً بالمراثى والمآتم والدموع المسكوبة على من فقدتهن من أفراد أسرتها الأعلام ، وغيرهم من الأفاضل الكرام .

***

أما سيرتها : فقد ولدت فى كفرشيحا فى لبنان فى العشرين من شهر يناير من سنة ١٨٣٨م (١٢٥٣هـ) ثم انتقل والدها إلى بيروت وأدخلها مدرسة البنات للمرسلين الأمريكيين . ولما بلغت الثانية عشرة لقنها والدها أصول الصرف والنحو والبيان والعروض فنبغت فيها ، ورآها والدها مطبوعة على الشعر فرشحها له فنظمت عدة قصائد وهى لم تناهز الرابعة عشرة . ثم أخذت تكثر من النظم والرثاء والمديح وغيرهما ، وقد أجادت فى الرثاء كما قلنا لما منيت به أسرتها من المصائب الفاجعة . وقد اقترنت بفرنسيس شمعون سنة ١٨٦٦م وصرفت أكبر قسم من حياتها فى مصر فى مدينة الاسكندرية ، وتوفيت فيها فى الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٤ م (١٣٤٢هـ) ، وتعرف بأنها أول امرأة نبغت فى الأدب العربى فى القرن التاسع عشر ، وتظهر كتاباتها مقدرة عظيمة فى طريقة التركيب على نمط والدها ، ومحتويات أشعارها قصائد تنطق بظروف ذات علاقة متينة بتاريخ عائلة اليازجى . ولها مع أديبات عصرها فى سوريا ومصر وبغداد مساجلات ومراسلات تنم عن لطف وبراعة فى التعبير ، ونشرت عدة من المقالات بعضها فى مجلة الضياء تناولت فيها قضية المرأة الشرقية وغيرها ، وغلب على نظمها مسحة الشعر اليازجى فى السهولة والرقة ، وقد عمرت طويلا . وممن كتب عنها من الغربيين المستشرق بروكلمن ( Brockelman GA L 11495 ) وأما الشرقيون فكثيرون[1] نخص بالذكر منهم الأب لويس شيخو اليسوعى ( ملاحظات شيخو : التاريخ ص ٤١٥ — ١٦ ونفس الفهرست ص ٢١٣ العدد ٨٢٩ ) ومحاضرات الآنسة مى ( مريم زيادة وقد خصصتها بها وقد طبعت فى القاهرة فى مطبعة البلاغ المحتوية على اثنتين وستين صفحة مع الرسم ) . أما ديوانها « حديقة الورد » فقد طبع مرتين فى بيروت سنة ١٨٦٧م ، سنة ١٨٨١م وفى القاهرة للمرة الثالثة سنة ١٩١٣ م ( ١٣٣٢ هـ ) وزيد على طبعته الأخيرة كثير من القصائد النادرة لها . وأما شعرها فينقسم قسمين : الرثاء والمديح، ولنبدأ الآن بالمديح . فمن ذلك أن قالت فى جواب أبيات وردت عليها من وردة بنت المعلم نيقولا الترك الشاعر فى مطلع ديوانها :

يا وردة الترك إنى وردة العرب  فبيننا قد وجدنا أقرب النسب
أعطاك والدك الفن الذى اشتهرت  ألطافه بين أهل العلم والأدب

وقالت فى جواب رسالة إلى الست كاتبة بنت موسى بسترس وفى هذا تورية لطيفة لأن اليازجى بالتركية يعنى الكاتب :

---

(١) معجم المطبوعات ليوسف اليان سركيس ص ١٩٣٩ — ٤٠ مادة يازجى ، قاموس تراجم الأعلام لخير الدين الزركلى ج ٣ ص ١١٣٤ فتاة الشرق ، مجلة الآثار المجلد الثانى . بلاغة النساء لفتحية محمد . تاريخ الصحافة لفيليب دى طرازى ، مجلة سيدات والرجال السنة الخامسة أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام لعمر رضا كحالة ج ٣ ص ١٦٠٠ — ١٦٥٤ ط دمشق ، المعلمة الاسلامية المجلد الرابع ص ١٢٣٦ مادة يازجى المقتطف المجلد الرابع والستون ج ٢ ص ٢٣٩ .

بيني وبينك في الأسامي نسبة … لا في المعاني أنت فوق مراتبي
سميت كاتبة بكل لياقة … وأنا كما تبغين بنت الكاتب

وقالت وقد عادت صديقة لها من سفر :

زار الحبيب فزار أجفاني الكرى … ودنا سرور كان عن قلبي سرى
لا تنكروا إن غاب عني مرة
شيم الكواكب أن تغيب فتظهرا

ثم تقول :

أهلا بمن أخذ القلوب وديعة … وأعادها معه تخوض الأبحرا (١)

وقالت في رسالة إلى صديقة لها وقد كانت في سفر :

مني السلام على الذي هجر الحمى … فجرت دموعي كالسحائب عندما
الشوق زاد من البعاد تحسراً … والنوم صار على العيون محرما

ثم هي تقول فيها :

يا راحلا أضحى فؤادي عنده … وبقيت من وجدي أراعي الأنجما

وكذلك قالت :

مني السلام إلى من سارق السحر … وبدّل العين بعد النوم بالسهر (٢)

وقالت وقد بعثت بها إلى إحدى صواحبها وقد كانت في سفر :

رحل الحبيب وحسن صبري قد رحل
فمتى يعود إلى منازله الأوّل
وتفيء أرض أظلمت من بعده … وتقر عيني باللقا قبل الأجل

ثم تقول :

قد قل صبري للبعاد تحسراً
والجسم من أجل الفراق قد انتحل
يا غائباً والقلب سار بإثره … شوق مقيم في فؤادي كالجبل
يا بدر غبت اليوم عنا راحلا
والبدر ليس يغيب شهراً إن أفل (٣)

وقالت في الأميرة تاج الشهابية :

تحية من مشوق زائد النُّلل … تهدى إلى تاج مجد من ذوي الدول

ثم تقول :

إلى التي صار قلبي اليوم مسكنها … كأنها الشمس حلت منزل الحمل
جميلة الخلق تحكي البدر طلعتها … جليلة الخلق في قول وفي عمل

وكذلك تقول :

يا من بها زهت الأيام قائلة :
لا تحسبوا أن كل الفضل للرجل

وقالت تمدح ميخائيل المدوّر :

نخل اليمامة يفدى نخلة ظهرت
في أرض بيروت منها الظل والثمر

ثم قالت وقد زار أباها الأمير أمين أرسلان :

تدفق في منازلنا السرور … مساء حين شرفها الأمير
أضاءت بهجة كالصبح لما … تجلى فوقها القمر المنير
فكادت ترقص الأكباد تيها … بما نالته أو كادت تطير

وكذلك قالت جواباً لصديق أبيها محمد عاقل أفندي الساكن في الاسكندرية :

زارت بجنح الدجى والليل معتكر
فقالت الدار ها قد أشرق السحر
خود تميس بقدّ كالقناة بدا … إذا رأته غصون البان تنكسر
قدٌّ يقدُّ قلوب العاشقين إذا … ما اهتز يوماً ترى الأكباد تنفطر
خطت لأهل الهوى سطراً بوجنتها
إياكم النار لا يؤذيكم الشرر

ثم هي تقول :

أهدى إلى بيوتاً كل قافية … منهن تخجل منها الأنجم الزهر

وهي تقول أيضاً :

سحبان مصر ويا ركن البلاغة من
به القوافي غدت تزهو وتفتخر

وقالت تجيب أحد الفضلاء عن أبيات بعث بها إليها من بغداد :

منّ الكريم بها عليّ رسالة … تفدى بكل وصيفة ووصيف

وفيها تقول :

أهديتني مدحاً به أغرقتني … في بحر فضل لم يكن بخفيف

وكذلك قالت جواباً لأحد الأفاضل عن أبيات أرسلها لوالدها من بغداد :

(١) ديوان حديقة الورد ص ٣ من الطبعة الأخيرة .
(٢) نفس المصدر ص ٤ .
(٣) كذلك ص ٥ .

خود من العرب وافت تنجلى تيهاً
كالشمس تشرق فينا من أعاليها

إلى أن تقول :

اللوذعى الذى الزوراء مسكنه | وصيته سار فى أقصى ضواحيها
حيا الحيا أربع الزورا وأهلها | وجادها الغيث هتاناً بواليها
فى أرضها منبع العلم الذى غمرت | مياهه وارتوت منه أهاليها
أهدى إلى بيوتاً كل قافية | منهن تسكر لا بالخمر قاريها

ولها فى لبنان ذكريات ولوعات حيث تقول فيه :

يا ربى لبنان حياك الحيا | وسقى تربك هتان الغمام
يا ربوع الأنس يا دار الصفا | يا جنان الخلد يا أهنا مقام

ثم انظرها تقول :

وخرير الماء فى تلك الربى | كحنين من محب مستهام
بسط الزهر على أرجائه | بين ورد وبهار وخزام
وترى الأطيار فى تلك الربى | بين شحرور وباز ويمام

وفى تهنئتها للأميرة نازلى هانم بعودتها من أوربا تقول :

أهلا بذات العلى والمجد والحسب | سليلة العلوى الماجد النجب
شمس بدت من سماء الغرب مشرقة
فغار ما فى سماء الشرق من شهب
فرع كريم أتى من دوحة سقيت
أعراقها بمياه الفضل لا السحب

وقالت تتذكر أيام الصبا :

يا زمان الصبا عليك السلام | يا ربيعاً تزهو به الأيام
فيك تحلو الحياة يا زهرة الـ | ـعمر وتنمو العقول والأجسام
لهف نفسى على أويقات أنس | قد تقضت كأنها أحلام
حيث كان الزمان طلق المحيا | وعيون الأكدار عنا نيام(1)

وقالت تمدح شكرى الخورى والسوريين فى أميركا الذين اشتركوا فى إقامة تمثال لأخيها إبراهيم .

يا من يقصر عن شكرى له قلمى | لما أتى من جميل الفضل والكرم
الفاضل الشهم شكر الله من لهجت
بشكره ألسن الأيام والهمم

(1) ديوان حديقة الورد ص ٦٥ .

ذكرت قومى إلى ما ترتابه لهم | صنعاً جميلاً وبرهاناً لودهم
لهم علينا اليد البيضاء ما بقيت | فينا حياة توالى ذكر فضلهم
يا سادة جمعتهم نسبة الوطن الـ | ـمحبوب جمع الثريا غير منفصم
جددتم شخص من نهفو لرؤيته | كأنما هب مبعوثاً من الرجم
فلو تمكن من نطق لصافحكم | شكراً وحياه بالدر والحكم
وما مديحى لكم حبر على ورق
بل خط فى لوح صدرى شكركم بدمى(1)

إلى هنا نكتفى من قولها نظما فى المديح ، وأما الرثاء فقد أبدعت فيه كل الابداع وأجادت فيه كل الاجادة . فهى التى بكت فى رثائها وأبكت من سمعها أو قرأها فى هذه القصائد الحزنة التى نأتى هنا بالميسور إيراده فقالت ترثى البطريرك مكسيموس مظلوم حين توفى بالاسكندرية سنة ١٨٥٥ :

يا حاسباً دنياك دار قرار | أقصر عناك فتلك أخبث دار
لا تستقر بها النفوس ولا ترى | قلباً بلا غم ولا أكدار
دنيا غرور كلما طال المدى | طال الغرور بمكرها الغرار

ثم هى تقول :

لله يومك فى الأنام فانه | أبقى لنا حزنا مدى الأدهار

وقالت ترثى المرحوم مارون نقاش المتوفى سنة ١٨٥٥ م :

الموت للناس كالجزار للغنم | فليس يترك من طفل ولا هرم
كأس يدور علينا ساقياً أبداً | وليس يترك إنساناً من الأمم

ثم تقول :

ذابت لفرقته الأكباد والتهبت
أجفاننا من دموع ضرجت بدم

وقالت أيضاً ترثى المرحوم غالى بميت الأمريكى :

ذابت بجمرة فقدك الأجسام | يا فاضلا غدرت به الأيام

ثم تقول :

قد سرت من وادى الدموع مودعاً
هل يرتجى بعد الوداع سلام

(يتبع) **يوسف يعقوب مسكوني**

(1) كذلك ص ٨٥ و ٨٦ .

**الأدب في سير أعلامه :**

# ملتن ...

[ القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال .. ]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٣ —

**البرسبتيريز والصدمة الثانية :**

ويضرب ملتن لقومه مثلا لما يقع من الضر إذا اختنقت حرية الرأى فيستعيد ذكرياته عن رحلته فى إيطاليا ويذكر كيف عده المثقفون هناك سعيداً بمولده فى انجلترة موطن الفلسفة الحرة إذ كانوا يظهرونه على تألمهم وحسرتهم لما تعانى المعرفة عندهم من تعسف وإعنات وقيد ؛ ويقول ملتن إن ما يعانيه طلاب المعرفة هناك من قيود هو سبب ما اكتنف مجد أولى الذكاء من الإيطاليين من ضباب ، وإلى تلك القيود يعزى مَلَقُ الإيطاليين وإدعاءاتهم وهما خلتان بارزتان فى أكثر ما يكتبون ...

ويشير ملتن فى فقرة قوية بالغة الأثر فى النفوس إلى ضحية من ضحايا الحرية وذلك هو جليليو الذى جاهد طويلا ليكشف عن الأبصار ما حجب عنها النور من غشاوة ، وينزع عن القلوب ما طمس عليها من خرافة وجهل ، فكان جزاؤه السجن والمهانة وقد تحطم هيكله الذى آده العبء كما آدته السنون وذهب بصره فأحاطت به الظلمة وهو الذى طالما صبر على أذى قومه وصابرهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

ولن يزال ملتن عظيم الثقة فى انجلترة ، يقدرها حق قدرها ويراها خير أمة منذ قام العالم ، فهى أمة ذكية بصيرة حازمة ، ذات روح وثابة سريعة إلى ما تريد ، لن تتخاذل عن أقصى ما تصل إليه المقدرة البشرية ، عريقة فى المعرفة على اختلاف فروعها حتى ليمكن القول إن مدرسة فيثاغورس والحكمة الفارسية القديمة إنما استمدتا بدايتهما من انجلترة ؛ ولها فى الدين وما هو من بابه من المعرفة ، باع طويلة وقدم راسخة ، فلولا ما كان من مقاومة بعض القساوسة لوكليف [(١)] ونظرتهم إليه كصاحب بدعة وداعية شقاق لما سمع أحد عن لوثر أوكلفن نفسيهما ، ولن تزال انجلترة مبعث كل دعوة إلى الإصلاح ومنار كل نهضة تقوم فى القارة ، وسيبقى لها فخر إصلاح جيرانها غير منتقص ذلك الفخر أبداً ... وقد تأذن الله لكنيستها بعصر جديد عظيم سوف تصلح فيه الإصلاح نفسه ، وكان أن تجلى الله لعباده وبدأ كما هو شأنه بالإنجليز منهم ...

ولئن عظم أمله فى انجلترة وما يرجى فيها من خير ، فإنه يوجس خيفة من التنكر للحرية كما فعل البرسبتيريز ، ولذلك فإنه يراهم شراً أى شر ، فما يحجب نور هذا الأمل عن البلاد إلا عنادهم واجتراؤهم على فعل ما كرهوه من قبل مما فعل القساوسة .

ويغلظ ملتن لهم القول ويعنف عليهم كما صنع بالقساوسة فيرميهم بالنفاق والجشع ، فما يتأتى الإخلاص لقوم يكرهون الحرية ويعترضون لها وما عبادته إلا حرفة احترفوها وتجارة يخشون كسادها ثم يتنبأ فى آخر كتيبه بأن سوف يلقى الباطشون من يبطش بهم ، ولعله بذلك يستخرج من مجرى الحوادث السياسية أن المستقلين سوف يعملون على سحق سلطة البرسبتيريز بعد أن يفرغوا من محاربة الملك ولقد جاءت الحوادث بعد ذلك محققة ما لمح به .

وكرهت رجعة البرسبتيريز كما يزعم إليه كل القائمين على شؤون الدين ، ولا عبرة بالمذهب ، وقر فى نفسه أن حرية الفكر والرأى مستحيلة ما دام هؤلاء قوامون على الناس ، وعنده أن تعصب القساوسة إنما يظهر فى صور وأشكال جديدة ؛ وما دام الأمر كذلك فلا إصلاح يرتجى ؛ إذ كيف يتحقق الإصلاح بغير الوصول إلى الحق ، ولا سبيل إلى الحق إلا الحرية ويريد بها تحرير العقل من الجهالات والضلالات ليفكر طليقاً ويتدبر فيما جاء به المسيح غير مقيد بقيد مهما كان نوعه أو كان مبلغه من الشدة أو

(١) مصلح دينى من القساوسة فى القرن الرابع عشر حارب العيوب القائمة حوله وترجم العهد الجديد .

الضعف ؛ وإذاً فالفكر الحر والرأى الحر هما سبيلا الإصلاح الحق ولا سبيل غيرهما .

لقد جاء المسيح بالهدى والحق إلى هذه الدنيا ، وذلك مبين فى الإنجيل ، ولكن الناس بعيدون عما بين لهم من الهدى لأنهم أخذوا أخطاء المفسرين على أنها الحق المقدس وفى ذلك أبلغ الضرر ؛ ولا مخرج لهم إلا أن يناقشوا المسائل التى يحيط بها الشك مناقشة لا قيد فيها حتى يهتدوا إلى الصواب ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا أن تتاح لهم الحرية ، فكأن الذين يخنقون الحرية إنما يحولون بين الناس وبين ما آتاهم المسيح من الهدى وأى إثم هو أكبر من هذا الإثم ؛ وكيف يطمع المصلحون فى الإصلاح إلا أن يكفوا أيدى هؤلاء البرسبتيريز الذين يصدونهم عن سبيله ويزعمون أنهم هم المصلحون ...

بهذا المنطق القوى أزعج ملتن البرسبتيريز ، فثل هذا الكلام يكون أشد وقعاً وأعظم أثراً من الهجاء مهما أقذع ، ولذلك كانت هذه الحرب أقوى من حربه على القساوسة وإن بدت أقل منها ضجيجاً لأن سلاحه فيها كان أمضى ولأنه يقاتل فى سبيل مبدأ تميل إليه بطبعها النفوس ...

تلك هى خلاصة الأريوباجيتيكا ؛ ويزعم بعض النقاد وأحسبهم على حق فيما يزعمون أنه لو لم يكن ملتن صاحب الفردوس المفقود وصاحب كومس والفردوس المستعاد وغيرها من الشعر لذهبت كتاباته النثرية مع الزمن إلا هذا الكتيب الذى جعله للدفاع عن مبدأ من أجل المبادىء فى حياة بنى الدنيا منذ أقدم عصورها ألا وهو حرية العقل لا فى تفكيره فحسب فإن ذلك طوع كل فرد ذكى بل فى إعلان ما يرى من رأى .

ويحبب هذا الكتيب إلى النفوس فضلا عما يدافع عنه من مبدأ فيه ، ما ساقه ملتن من أمثلة وما لجأ إليه من الإشارات والتلميحات كما يفعل فى شعره ، وكان التاريخ هنا هو الكنز الذى استخرج منه أصدافه ولآلئه ، وحسبك أن يلمح إلى سقراط واستشهاده وإلى جليليو وما لاقى من كوارث وإلى أفلاطون وبيكون وإرزس وسبنسر الذى وصفه بقوله « شاعرنا الحكيم الوقور » ، وأضرابهم ممن اهتدوا بنور العقل فى ظلمات الجهل فكانوا على طريق الإنسانية مصابيح تنطوى القرون ونورهم أبلج وكلما اشتدت الظلمة ازدادوا ظهوراً كـكوا كب السماء ونوراً ...

وحسبك أن يشير إلى أثينا وأن يتدح فيها النشاط العقلى وأن يشيد بما كان يعلم آباء المسيحة الأولون من علوم الأقدمين ؛ إلى كثير من أمثال ذلك مما يسوقه براهين على فضل العقل ، فنى العقل وحده الخلاص من نير الجهل مع شرف القصد والإخلاص فى استجلاء الحق لا فى الخضوع لكل منقول والتسليم به فى غير تدبر فيه ...

وهو فيما يسوقه من هذه الأمثلة إنما يعرض بالبرسبتيريز الذين أنكروا منه ما اهتدى إليه بعقله فى أمر الطلاق والذين هالهم منه تأويل ما أول من عبارات الإنجيل لتتمشى مع ما ذهب إليه من رأى أو الذين رموه بالفسوق لأنه طلب تحكيم الضمير والاستعانة بالعقل فيما يلتبس فيه الأمر من أحكام الإنجيل ولا يتفق فى ظاهره مع طبائع الأشياء .

والحق أن ملتن خليق بأن يثير إعجاب الناس به جيلا بعد جيل ، فقد كان لشخصه من الجلال ولروحه من القوة ولنفسه من العزة ما لا يتوفر مثله إلا للأفذاذ القليلين على فترات من الزمن ؛ ولا نجد فيما تحدث عنه المؤرخون خيراً من حديث مكولى عن خلقه فلنأت به على سرده . قال مكولى « وبقى بعد ذلك أن نتحدث عن المعين الذى استمد منه خلق ملتن العام عظمته وروعته الخاصة به ، فلئن كان قد أتعب نفسه ليقضى على ملك حانث[1] أو سلطة كهنوتية ظالمة ، فإنما فعل ذلك مشتركا مع غيره من الناس .

ولكن مجد المعركة التى خاض غمارها من أجل ذلك الضرب من الحرية الذى هو أعظم ضروبها قيمة ، وإن كان أقلها حظاً يومئذ من إدراك الناس ، وأعنى به حرية العقل البشرى كان بأجمعه مجده وحده ...

لقد رفع الألوف من معاصريه وعشرات الألوف منهم أصواتهم ساخطين على ضرائب السفن وعلى محكمة غرفة النجم ، ولكن لم يفطن إلا قليل منهم إلى ما يعد شره أعظم من ذلك هولا ألا وهو الرق العقلى والخلقى ، ولا إلى ما عسى أن يعود من

(١) سيأتى بيان ذلك عند الكلام على الجانب السياسى من حياته .

خير على الإنسانية من وراء حرية النشر ، ومن وراء الحكم الشخصى على الأشياء يجرى به الرأى غير مقيد بقيد ؛ هذه هى الأغراض التى رأى ملتن أنها بحق أعظم الأغراض خطراً ، وكان تواقاً إلى أن يرى الناس يفكرون لأنفسهم كما أنهم يشرعون الضرائب لأنفسهم ، وأن يتحرروا من سلطان الهوى ، كما قد تحرروا من سلطان «شارل» ، وكان يعلم أن الذين اعتلوا صنوف الإصلاح هـذه ونفوسهم تنطوى على أحسن المقاصد ، وقنعوا بإسقاط الملك وإلقاء الملكيين الطاغين فى السجن ، إنما سلكوا مسلك الأخوين الغافلين فى قصيدته اللذين ألهاهما فرط حرصهما على تفريق الساحر وقبيله فأهملا وسائل تحرير أسيره ، لقد فكروا فى هزيمته فقط فى حين كان ينبغى أن يفكرا فى حل ما عقد من طلاسم السحر : « لقد أخطأتما ، فإنه كان ينبغى أن تختطفا عصاه وتشدا وثاقه ، وذلك أننا وقد فاتنا أن نقلب العصا رأساً إلى عقب ونقرأ فى اتجاه عكسى كلمات الساحر ذات القوة التى تفكك الأوصال ، لن نستطيع أن نطلق سراح هذه السيدة التى تجلس هنا مغلولة بأغلال شديدة ، فهى فى مكانها ثابتة لا تتحرك »(1)

وكان العمل على أن تقلب العصا ، وأن تقرأ كلمات السحر فى عكس اتجاهها ، وأن تفكك القيود التى تشد الشعب الأبله إلى مقعد السحر ، كل أولئك كان ما يسمى إليه ملتن من غرض نبيل ، وإلى هذا الغرض وجه مسلكه فيما يتصل بالناس كله ، فمن أجله انضم إلى البرسبتيريين ومن أجله اعتزلهم ، ولقد خاض معركتهم المحفوفة بالمخاطر ، ولكنه نأى بجانبه عنهم مشمئزاً ساعة انتصارهم الوقح ، ورأى أنهم كانوا كمن هزموهم لحرية الرأى أعداء ، ومن ثم فقد انضم إلى المستقلين ودعا كرومول(2) أن يحطم ما نسب إلى الدين من غل وأن يخلص الضمير الحر من مخالب الذئب البرسبتيرى ؛ وهاجم ملتن وهذا الغرض النبيل نصب عينيه قانون الطبع والرقابة فى مقال رفيع الطراز (3) يجدر بكل سياسى

(1) راجع غنائية كومس وهذه العبارة من كلام الروح الحارس للأخوين .

(2) سيأتى بيان ذلك عند الكلام على مقطوعته الشعرية التى وجهها إلى كرومول سنة ١٦٥٢ .

(3) يقصد به مقال الأريوباجيتيكا .

أن يلبسه كشعار فوق يده وكذؤابة بين عينيه ؛ وكانت لا توجه هجماته بوجه عام إلى المساوىء الخاصة بقدر ما كانت توجه إلى تلك الأخطاء المتأصلة التى تكاد تبنى على أسسها جميع الأخطاء ألا وهى العبارة الخانعة لذوى المكانة من الناس ، والخوف الذى هو ليس من العقل فى شىء من كل تجديد .

ولكى يزلزل أسس هذه النوازع الذلة زلزالا أشد وأوفى بالغرض ، كان يختار ملتن لنفسه دائماً مما يبذل من الخدمات الأدبية أدعاها إلى الشجاعة والجرأة ولم يكن يأتى قط فى المؤخرة بعد أن تنقص الأيدى من الجهود الخارجية وتنفذ الجنود من الثغرة ، وإنما كان يدفع بنفسه المقدمة إلى ما تتخاذل دونه الآمال .

ففى بداية ما حدث من أوجه التغيير ، أخذ يكتب بكل ما فى وسعه من نشاط وفصاحه لا يجاريه أحد فيهما منددا بالقساوسة، فلما بدا له أن آراءه قد تم لها الغلبة تجاوزها إلى موضوعات أخرى ، وترك القساوسة إلى طائفة كبيرة العدد من الكتاب أسرعت بعده إلى التهجم على تلك الفئة التى تهوى ...

وليس ثمة من عمل أشد خطراً من الاضطلاع بحمل مشعل الحقيقة إلى المجاهل الموبوءة التى لم يضىء فيها نور قط ولكن ملتن كان يختار لنفسه دائما أن يقتحم ذلك الضباب الصاخب ، وكان يسره ذلك الاختيار كما كان يسره أن يركب الأخطار فى ذلك الاكتشاف الذى يبعث الرعب ؛ ويجب على أشد الناس إنكاراً لآرائه أن يحيطوا بالتوقير ما لاقاه فى سبيل استمساكه بها من عنت وشدة ، ولقد ترك لغيره فى الجملة العمل على شرح الجوانب المقبولة من عقيدته الدينية والسياسية والدفاع عنها ؛ أما هو فقد جعل من نصيبه أن يؤيد العقائد التى رأى جمهور مواطنيه أنها آثمة والتى سخروا منها لأنهم زعموا أنها متناقضة ، فقد ذاد عن حق إباحة الطلاق وأيد إعدام الملك وهاجم نظام التعليم السائد فى أيامه(1) وإن عمل الخير الذى يشع النور ليشبه فى آلهة الخرافة عمل إله الضوء والخصب »

والحق أن الدفاع عن الحرية كان هدفه فى معظم ما كتب ، فقد دافع عن الحرية الدينية بحربه على القساوسة وعن حرية النشر

(1) انظر الفصل التالى

بحملته على الرقابة ، وعن حرية الضمير بالطعن على البرسبتيريز وعن حرية الأسرة بأنكار ما ينطوى عليه قانون الزواج من استبداد أو عن الحرية المدنية كما سنفصله فى حينه بإعلانه السخط على طغيان التاج ...

ولكن بعض النقاد يردون ذلك إلى دوافع شخصية محاولين بذلك أن يبخسوه أعماله ، فيقولون إنه هاجم القساوسة لأنهم أبعدوه عن الكنيسة ، ويدافع عن حق إباحة الطلاق لما صادف فى زواجه من خيبة ، ويغضب على البرسبتيريز ويتهمهم بضيق العقل لأنهم لم يقروه على ما ذهب إليه فى أمر الطلاق ويدعو إلى حرية النشر لأنهم أرادوا أن يخنقوا كتبه ...

وليس فى وسعنا أن ننكر تلك الدوافع الشخصية التى يشير إليها هؤلاء النقاد ، فإن شدة شعور ملتن بذاته من أبرز مقومات شخصيته منذ نشأته وأكثر تصرفاته إنما تم بدافع من ذلك الشعور ، ما فى ذلك ريب ، ولكنا لا نفهم كيف ينتقص ذلك من قدره وكيف يعد عليه ولا يعد له ؟

هذا رجل يرى حياته وحياة غيره بالضرورة محفوفة بقيود من القانون والعرف ، فيأبى على القيد ويثور ولا يريد أن يهدأ حتى يقضى على ما استرقّ الناس من عاداتهم ومما جرى به العرف بينهم ومما وضعت القوانين من الأغلال فى أعناقهم ، فماذا يدل عليه ذلك إن لم يدل على شخصية قوية ونفس أبية وضمير حر ؟

وهل جاهد ما جاهد فى غير عدو ؟ ألم يكن على حق فيما أنكر من عيوب عصره ؟ إن كانت تلك العيوب قائمة حقاً فلا يمكن أن يقال إن أهواءه ومطالب نفسه هى التى سيطرت على فكره ؛ فلا يبقى إلا أن دوافع شخصية حركته وهذا إنما يدل على أنه أحس قبل أن يحس غيره بضرورة الإصلاح ، وأن الوضع الاجتماعى فى كماله المنشود إنما يقاس مبلغ كماله بمقدار ما فيه مما يشاكل كمال نفسه وتلك غاية تتخاذل دونها الغايات .

وهل كان يستطيع أن يغمض العين غير مساوىء عصره لو لم تحركه دوافع شخصية إلى استنكارها ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد أن يقوله ، ولا هو مما يجوز فى عقل عاقل إلا على أوزاع الناس والهمج منهم ، ولقد كان ذلك الشاعر القوى الروح العظيم الثقافة مطبوعا على حب الحرية وعلى الجهر بما يؤمن أنه الحق ، ومن أجل ذلك كانت نفسه ثورة متصلة الحلقات منذ أن عصى أباه وهو صغير إذ أراد أن يسلكه فى سلك الدين بإلحاقه بالكنيسة وأبى إلا أن يهب للشعر نفسه ، ومنذ أن كان يتأبى على قيود عرفية فى الجامعة وينكر على الجامدين فيها جمودهم ، إلى أن جاهر الإيطاليين بمخالفته إياهم فى فطرتهم الدينية على الرغم مما حُذّر به وليسوا قومه ، إلى أن أذن القساوسة فى وطنه بحرب منه ، كل أولئك لأن نفسه تأبى إقرار الباطل ولا ترضى بغير الحق ...

ولا يسع كل منصف إلا القول بأن ما يشير إليه بعض الناس من دوافع شخصية إنما هو دليل على سلامة عنصره ونبل نفسه وسمو روحه .

(يتبع) **الخفيف**

**ديوان الطرائف :**

# سبط ابن التعاويذي

للأستاذ أحمد عثمان عبد المجيد

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله ، وينسب إلى ابن التعاويذى جده لأمه لأنه نشأ فى كنفه وحياطته ، وكان جده هذا زاهداً تقيا ومحدثاً صالحاً .

وقد ورث أبو الفتح عن جده الرغبة فى الدرس والتعلق بأسباب الثقافة ، فأقبل على النظر فى كتب اللغة والأدب ، يسعده طبع أصيل ، وتمده ملكة مرهفة ، حتى عرف بالبراعة فى الكتابة والحسابة ، وجلى فى ميدان الشعر ، تجمع فيه بين جزالة اللفظ وعذوبته ، ورقة المعنى ودقته . وفيه يقول ابن خلكان : إنه لم يكن قبله بمثلى سنة من يضاهيه . وكأنما خاف أن يتهم بالمبالغة والتزيد فأردف حكمه بقوله : ولا يؤاخذنى من يقف على هذا الفصل ، فإن ذلك يختلف بميل الطباع ، ولله در القائل : وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وقد تأثر أبو الفتح فى نثره طريقة ابن العميد القائمة على العناية بالتصنيع والتزيين ، وصرف الجهد إلى تكلف وجوه البديع

ولقد فتن كتاب الدواوين جميعاً بهذه الطريقة منذ أنهجها لهم أستاذهم ابن العميد ، وأغرقوا من بعده فى تصيد المحسنات ، فجنوا على المعنى ، وتحيفوا الفكرة رغبة فى تجويد الصورة وتجميلها فخرجوا على الناس حيناً بنثر مرقش ليس وراءه كبير معنى ولا جليل غرض ؛ وحيناً بنثر كز منقبض لا يفصح عن مراد ولا يهدى إلى قصد ، إذ جنى البديع عليه فأغمضه وأزال وضوحه وأوقع قارئه فى عمايه . وحسبك أن ترسل طرفك فى كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الأصفهانى صديق سبط ابن التعاويذى لترى الغرابة والاستبهام والكزازة .

وقد أورد العماد فى كتابه خريدة القصر وجريدة العصر طائفة من الرسائل التى تلقاها من ابن التعاويذى ، وفيها يتحرى الطريقة البديعية ، ويلتزم نهجها

ولقد ولى الكتابة بديوان الإقطاع ببغداد لبراعته فى الحسابة والإنشاء ، وانقطع إلى آل الرفيل ، وكان ولاؤه فيهم ، يمدحهم ويستمنحهم ، وكانوا سادة ذوى نفوذ وسلطان ، وقد ولى الوزارة منهم عضد الدين أبو الفرج للخليفة المستضىء . وفيه يقول الفخرى : كان من أفاضل الناس وأعيانهم ، نهض بأعباء الوزارة نهوضاً مرضيا ، وتلطف بالأمور تلطفاً لم يكن فى حساب الناس وبيته بيت مشهور بالرياسة .

ويبدو أن ابن التعاويذى قد أنفق جل عمره مع آل الرفيل يحمد لهم إقبالهم على بره وإنعاشه . فإن أحس منهم إغفالا له واطراحا لما ألزمهم من حقه جاهر بلومهم والإنكار عليهم . وفيهم يقول :

قضيت شطر العمر فى مدحكم ... ظنا بكم أنكم أهله
وعدت أفنيه هجاء لكم ... فضاع فيكم عُمْرى كله

وهذا قول قاس ، يدل على أن شعراء المدح والاستمناح ما كان يردعهم عن التدلى إلى المجاهرة بالهجاء سالف معروف ، ولا سابق مبرة . وأنهم إن أعطوا منهم رضوا ، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون .

ولعل تهم ابن التعاويذى بالمال كان يدفعه إلى مدح غيرهم ، ولعلهم نقموا منه ذلك وأنكروه عليه لأنه إن دل على شىء فإنما يدل على أن صنائعهم إليه لا تنهض بحاجاته ، ولا تفى برغائبه . فقال يعتذر مسجلا فى صراحة أنه كخماص الطير تجتذبه الجدوى كما يقنصها الحب ، وهو بهذا يستفيد من قول المتقدم :

يسقط الطير حيث ينتثر الحب (م) وتغشى منازل الكرماء

قال :

وما زلت فى آل الرفيل بمعزل ... عن الجور مبذولا لى الخصب
فإن أقترف ذنبا بمدح سواهم ... فإن خماص الطير يقنصها الحب
وإن عاد لى عطف الوزير محمد
فقد أكثب النائى ، ولان لى الصعب
وزير إذا اعتل الزمان فرأيه ... هناء به تطلى خلائقه الجرب

ولقد دفعته صلته بآل الرفيل إلى أن يناصب الوزير ابن البلدى العداء ، وأن يهجوه حين عزل أرباب الدواوين واشتد عليهم بالمصادرة والعقاب . وكان بين عضد الدين الرفيل وابن البلدى

جفاء ما فتىء يتفاقم حتى حمل عضد الدين على أن يدبر لقتل الوزير وتم له ذلك، ووثب من بعده على الوزارة. وفى ابن البلدى يقول ابن التعاويذى:

يا قاصدا بغداد، حد عن بلدة | للجور فيها زخرة وعباب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد | سدت على الراجى بها الأبواب
بادت وأهلوها معا، فبيوتهم | ببقاء مولانا الوزير خراب

وفيه يقول أيضاً: —

يا رب أشكو إليك ضرا | أنت على كشفه قدير
أليس صرنا إلى زمان | فيه أبو جعفر وزير؟

وما زال ابن التعاويذى قائما بالعمل فى ديوان الأقطاع حتى ذهب بصره، فاعتزله. وله فى عماه أشعار كثيرة يرثى بها عينيه ويندب الشباب ورونقه، فيستدر بها الإشفاق، ويستدعى أبلغ العطف وأعمقه. ومنها:

لقد رمتنى — رميت بالأذى — | بنكبة قاصمة الظهر
وأوترت فى مقلة، قلما | علمتها باتت على وتر
جوهرة كنت ضنينا بها | نفيسة القيمة والقدر
إن أنا لم أبك عليها دما | فضلا عن الدمع، فما عذرى؟
مالى لا أبكى على فقدها | بكاء خنساء على صخر؟

وأنت تتمثل فى هذه الأبيات حر اللوعة، ولذع الفاجعة فى الاعتراض بقوله رميت بالأذى، وفى الكناية عما كرثه بقوله قاصمة الظهر، وفى مغالاته بمقلته فلم تكن لتنام على وتر، وفى إنكاره أن يكون له عذر إن يبكها دما، ومنها:

فها أنا كالمقبور كسر منزلى | سواء صباحى عنده ومسائى
يرق ويبكى حاسدى لى رحمة | وبعداً لها من رقة وبكاء

وقد جاء فى عبارة ابن خلكان نعته إياه بالعمق فى معانيه.

وإليك أمثلة من براعته فى التوليد: قال فى الشيخوخة:

من شبه العمر بالكأس يرسو | قذاه، ويرسب فى أسفله
فإنى رأيت القذى طافيا | على صفحة الكأس من أوله

وقال فيها أيضا:

وعلو السن قد كسر (م) بالشيب نشاطى
كيف سموه علوا | وهو أخذ فى انحطاط؟

وقال:

ولم أكره بياض الشيب إلا | لأن العيب يظهر فى النهار

***

ولما عمى التمس أن يقيد ماله من راتب بالديوان بأسماء أولاده ثقة منه بأن يجد فى ذراهم برا به ما امتدت له الحياة، وتعجيلا لسوق النفع إليهم، ورفعا لأسباب التباغض من بينهم. فلما تم النقل والتقييد كتب قصيدة ورفعها إلى الخليفة الناصر يلتمس فيها تجديد راتب له مدة حياته لما جر به من عقوق أولاده. وقد أبدع فيها تصوير عقوقهم، واحتجانهم الراتب من دونه، وإهمالهم أمره، وكان الناصر من أفاضل الخلفاء، بصيرا بليغا، متوقد الذكاء والفطنة، غير مدافع عن فضيلة علم، ولا نادرة فهم، يفاوض العلماء مفاوضة خبير، فلما وقف عليها ملكت نفسه لعذوبتها ورقتها، وما يثيره موضوعها من إشفاق ومرحمة، وما افتتحها به من مدح جميل، فأنعم عليه براتب جديد ومطلعها:

خليفة الله انت بالدين والدنيا (م)، وأمر الإسلام مضطلع

ومضى يمدح الخليفة باتهاجه نهج أعلام الهدى، وما أفاضه على الناس من عدل وخير، وما أزاله من أسباب الخلاف والبدع، ثم قال:

أرضى قد أجدبت، وليس لمن | أجدب يوما سواك منتجع
ولى عيال، لا در درهم | قد أكلوا دهرهم، وما شبعوا
إذا رأونى ذا ثروة جلسوا | حولى، ومالوا إلى واجتمعوا
وطالما قطعوا حبالى إع (م) راضا إذا لم تكن معى قطع
يمشون حولى شتى كأنهم | عقارب، كلما سعوا لسعوا

ثم قال:

لهم حلوق تفضى إلى معد | تحمل فى الأكل فوق ما تسع
من كل رحب المعاء، أجوف نا (م) رى الحشا لا يمسه شبع
لا يحسن المضغ فهو يطرح فى | فيه بلا كلفة ويبتلع
ولى حديث يلهى ويعجب من | يوسع لى خلقه فيستمع
نقلت رسمى جهلا إلى ولد | لست بهم ما حييت أنتفع
نظرت فى نفعهم وما أنا فى اجـ | ـتلاب نفع الأولاد مبتدع
وقلت هذا بمدى يكون لكم | فما أطاعوا أمرى ولا سمعوا
واختلسوه منى، فما تركوا | عينى عليه، ولا يدى تقع

# نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

## ٨٤٨ — الفقير والغنى

أبو بكر الخوارزمى :

إن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا تطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر فى الفطر صدقته ، ولا فى النحر أضحيته[1] ، ولا فى شهر رمضان مائدته ، ولا فى الربيع باكورته ، ولا فى الخريف فاكهته ، ولا فى وقت الجباية خراجه وعشره ، فانما هو مسجد يحمل إليه ، ولا يحمل عليه ، وعلوى يؤخذ بيديه ، ولا يؤخذ من يديه ، يتجنبه الشرطى بالنهار ، ويتوقاه العسس بالليل وفى الأسحار ، فهو إما غانم أو سالم . والغنى إنما هو كالغنم غنيمة كل يد سالبة ، وصيد كل نفس طالبة ، وطبق موضوع على شارعة النوائب ، ومنصوب على مدرجة المطالب ، تطمع فيه الاخوان ، ويأخذ منه السلطان ، ويتطرق إليه الحدثان ، ويتحيف ماله النقصان ...

(١) الأضحيه : ضم الهمزة فى الأكثر وكسرها إتباعا لكسرة الحاء ( المصباح ) .

## ٨٤٩ — العقل

شرح ( أدب الكتاب ) لموهوب الجواليقى :

... عن محمد بن المرزبان عن شيخ له قال : قال الاصمعى : كانت العرب تقول : من كانت فيه خصلة أحد من عقله فبالحرى أن تكون سبب هلاكه .

فحفظت الحديث ، فحدثت به المدائنى ، فقال : هذا حديث حسن ، وعندى آخر يشبهه ، كانت العرب تقول : من لم يكن عقله من أكمل ما فيه ، كان هلاكه من أيسر ما فيه .

---

ثم قال :

فاستأنفوا لى رسما أعود على ضنـــك معاشى به فيتسع
وإن زعمتم أنى أتيت بها خديعة فالكريم ينخدع
ولا تطيلوا معى ، فلست ولو دفعتمونى بالراح أندفع
وحلفونى ألا تعود يدى ترفع فى نقله ولا تضع

يقول ابن خلكان : فما ألطف ما توصل به إلى بلوغ مقصوده بهذه الأبيات التى لو مرت بالجماد لاستمالته وعطفته .

وبعد فإن فى هذه القصيدة الطريفة ائتلافا واضحا ، ورقة وانسجاما ، وتصويراً بارعا للمقوق يهز النفس ألما وحزنا ، ويمزق القلب أسى وحسرة . وإن الدنيا لحافلة فى تصرفها بالناس بأشباه هذا الحادث .

فإن قيل إن الشاعر قد نحل أبناءه هذا العقوق ليملك من نفس الخليفة ، ويضمن انخداعه ، والكريم ينخدع ، فيرجع براتب آخر — قلت : لقـــد جلا عن قدرته على التمويه ، وبرع مع تعود الاعتقاد عن مناصرته ، وشعور الشاعر بأنه يترجم عن اعتقاد من أقوى أسباب إجادته وإتقانه .

وقد أذكرنى موقف أبناء ابن التعاويذى منه بما قرأته عن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان من أبر الناس بأمه فقد قيل له : إنك لشديد البر بأمك ، فلم لا تأكل معها من صحفة واحدة ؟ قال : أخاف أن تسبق يدى إلى ما سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها . فأين هذا البر من ذاك العقوق ؟

رحم الله آل البيت ، فما كانوا فى الناس إلا أقباساً ساطعة من نور النبى الأعظم .

وفى الشاعر يقول ياقوت : وكل شعره غرر ، وديوانه كبير جمعه بنفسه قبل أن يضر ، وما حدث من شعره بعد العمى سماه الزيادات . وولد سنة ٥١٩ ، وتوفى فى بغداد سنة ٥٨٣ هـ وقد طبع الديوان بمصر فى مفتتح هذا القرن بعناية الأستاذ مرجليوث ، ولكنه اليوم عزيز لا يكاد يكون فى دكاكين الوراقين

أحمد عثمان عبد المجيد

فحفظت الحديثين ، فحدثت بهما أحمد بن يوسف فقال : هذان حديثان حسنان ، وعندى آخر يشبههما : كانت العرب تقول : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان سريعا إلى حتفه .

فحفظت الأحاديث ، فحدثت بها أبا دلف فقال : هذه أحاديث حسان ، وعندى حديث أحسن منها غير أنه لا يشبهها ، كانت العرب تقول : كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه إذا كثر غلا .

فحفظت الأحاديث فحدثت بها الحسين بن على الكوكبي فقال : كان الحسن يقول : ما تم دين رجل حتى يتم عقله .

وبعد ، فقد قال ابن السماك : من لم يتحرز من عقله بعقله هلك من قبل عقله .

### ٨٥٠ — العاقل يعلو على همه وحزنه

إرشاد الأريب : قال أبو حيان :

كان يختلف إلى مجلس أبي سعيد ( السيرافي ) على بن المستنير ، وكان أبو سعيد يعرف له تقدمه على كثير من أصحابه ، وكان يرجع إلى وطأة خلق ، وحسن عشرة ، وحلاوة كلام ، وفقر مدقع ومعيشة ضيقة وكثرة عيال ومؤنة مع نشاط القلب ، وثبات النفس ، وطلاقة الوجه ، وكثرة المرح . وقرأ يوما على أبي سعيد ديوان الرقش ، وأخذ خطه بذلك ، وعجل الانصراف من عنده ، فقال أبو سعيد : أين عزمت ؟ قال : أذهب لأصلح أمر العيال . فدعا له بالرزق والسعة . فلما انصرف قلنا له : هذا الرجل مع ما هو فيه لا يعرف الحزن فى وجهه ، ولا يشتد همه ، ويقدر على دفعه . فالتفت بعضهم فقال : أيها الشيخ ، وراءه حال يخفيها عنا ، ويطويها منا(١) .

قال ( أبو سعيد ) :

ما أظن الأمر على ذلك ، لكن الرجل عاقل ، والعاقل يعلو على همه وحزنه فيقهرهما بعقله وعلمه ، والجاهل يشتد همه وحزنه ، ويرى ذلك فى وجهه ، ولا يقدر على دفعه لجهله .

فاستحسنا ذلك وأثبتناه .

(١) قالوا : خفى عليه وطواه ؛ عنه فالتعديتان مولدتان .

### ٨٥١ — أوادم

فى ( اللزوميات ) :

وما آدم فى مذهب العقل واحدا ولكنه عند القياس أوادم

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم

فى ( روح المعانى ) تفسير الألوسى :

ذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية فى الفصل الخامس عشر أن الله خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم ، بين كل آدم وآدم ألف سنة ، وأن الدنيا بقيت خرابا بعدهم خمسين ألف سنة ، ثم عمرت خمسين ألف سنة ، ثم خلق آدم .

وروى ابن بابويه فى كتاب التوحيد عن الصادق : لعلك ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم ، بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم ، أنتم فى آخر أولئك الآدميين .

فى ( مفاتيح الغيب ) تفسير الرازى :

نقل فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر عليه السلام أنه قال : قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر .

فى ( الفتوحات المكية ) لابن عربى :

لقد أرانى فيما يرى النائم وأنا طائف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرفهم بوجوههم ، فأنشدنى بيتين ثبت على البيت الواحد ، ومضى عنى الآخر ، فكان الذى ثبت على من ذلك :

لقد طفنا كما طفتم سنينا بهذا البيت طرا أجمعينا

فتعجبت من ذلك . فقال لى واحد منهم وتسمى لى باسم لا أعرف ذلك الاسم قال لى : أنا من أجدادك ، قلت له كم لك مذمت ؟ قال : بضع وأربعون ألف سنة(١) . فقلت له : فما لآدم هذا القدر من السنين . فقال لى : عن أى آدم تقول ؟ عن هذا الأقرب إليك أو عن غيره . فتذكرت حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله خلق مئة ألف آدم(٢) . فقلت قد يكون ذلك الجد الذى نسبنى إليه من أولئك .

(١) الألف مذكر ، فى التاج : يذكر البضع مع المؤنث ويؤنث مع المذكر يقال بضعة وعشرون رجلا وبضع وعشرون امرأة ولا يعكس وفى المصباح : يستوى فيه المذكر والمؤنث فيقال بضع رجال وبضع نسوة .

(٢) نحن فى ( نقل الأديب ) لا فى ( الاسلام الصحيح ) وإنها لطرائف أرويها لا حقائق أوحيها أى أكتبها

## ٨٥٢ — الحوائج بين اماميين

في ( المخصص ) لابن سيده :

قال محمد بن يزيد[١] : ( أما قولهم في حاجة حوائج فليس من كلام العرب على كثرته على ألسن المولدين ، ولا قياس له ) وهو في هذا القول متبع الاصمعي لأن الاصمعي قال : خرجت الحوائج عن القياس فردها ، وقد غلطا معا ، على أن الاصمعي رجع عن هذا القول فيما حكى عنه ابن أخيه والرياشي ، وذكرا أنه قال : هي جمع حائجة . وقال أبو عمرو : في نفسي منه حاجة وحائجة وحوجاء والجمع حاجات وحوائج وحاج وحوج وأنشد :

صديق مدام ما يفرق بيننا حوائج من إلفاج مال ولا بخل[٢]

وأنشد أبو عبيدة للشماخ :

تقطع بيننا الحاجات إلا حوائج يعتسفن مدى الجرى[٣]

وأنشد غيره في نحو منه :

يا رب رب القلص النواعج مستعجلات بذوى الحوائج

ولو تشاغل أبو العباس بملح الأشعار ونتف الأخبار وما يعرفه من النحو كان خيرا له من القطع على كلام العرب وأن يقول : ليس هذا من كلامهم . فلهذا رجال غيره ، وبالهم يسلمون أيضا[٤] .

## ٨٥٣ — أن أمالت على عطفا وجيدا

الطغرائي :

خبروها أني مرضت فقالت أضنى طارفا شكا أم تليدا[٥]

وأشاروا بأن تعود وسادى فأبت —وهي تشتهي— أن تعودا

وأتتني في خيفة وهي تشكو ألم الوجد والمزار البعيدا[٦]

(١) للبرم وقد ورد قوله في ( كامله ) في شرح بيت للراعي .

(٢) ألفج الرجل أفلس

(٣) الجرى : الرسول .

(٤) يقول الحريري في الدرة : ويقولون في جمع حاجة حوائج فيوهمون فيه كما وهم بعض المحدثين في قوله :

إذا ما دخلت الدار يوماً ورفعت ستورك لى فانظر بما أنا خارج

فبان بيت العنكبوت وجوسق رفيع إذا لم تقض فيه الحوائج

الجوسق : القصر والحوائج كما قال ابن سيده .

(٥) رواها الصفدي في شرح اللامية ثم قال : هذه الأبيات يرشفها السمع مداما ، ويفضلها السامع على العقود نظاماً ، ويظن الناظر ألفاتها غصوناً والهمزات عليها حماما .

(٦) الرواية (في خيفة) وربما كانت في ( خفية ) بكسر الخاء وضمها

ورأتني كذا فلم تتمالك أن أمالت على عطفا وجيدا

## ٨٥٤ — أعمى ، ومفلوج ، وأقطع

اجتمع على شراب في بعض الحانات أعمى ومفلوج وأقطع[١]

فقيل للأعمى : غن ، فغنى :

أني رأيت عشية النفر حورا نفين عزيمة الصبر[٢]

فقيل : ويلك كيف رأيت وأنت أعمى؟ وقيل للمفلوج : غن فقال :

إذا اشتد شوقي وهاج الألم عدوت على بابكم في الظلم

فقيل : مفلوج يعدو ! لا تكذب . وقيل للأقطع : هات غن ، فقال :

شبكت كفي على رأسي وقلت له يا راهب الدير هل مرت بك الإبل

فقالوا : أنت أكذبنا وأجودنا غناء ...

## ٨٥٥ — وما يفيدني إذا حزنت ؟

إرشاد الأريب : عبدالوهاب بن غالب عن الشريف أبي العلاء ابن التقي قال : قدم إلى واسط في بعض الأعوام عسكر الأعاجم ، فنهبوا قطعة من البلد ، ونهبوا دكان الشيخ أبي علي بن مختار ، ونزلوا بداره ، قال الشريف فدخلت معه إليهم نستعطفهم أن يردوا عليه بعض ما أخذوه منه ، فلم نر لذلك وجهاً ، وخرجنا وهو يقول :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

ثم التفت إلى فقال : ما العامل في الظرف في هذا البيت[١]؟

فقلت له : ياسيدى ، ماشغلك ما أنت فيه عن النحو والنظر فيه ؟

فقال : يا بني ، وما يفيدني إذا حزنت ؟ ..

(١) الأقطع : المقطوع اليد والجمع قطع وقطعان مثل أسود وسودان (اللسان)

(٢) النفر : التفرق . في المصباح : نفر الحاج من مني دفعوا ، وللحاج نفران فالأول هو اليوم الثاني من أيام التشريق ، والنفر الثاني هو اليوم الثالث منها . وأيام التشريق ثلاثة وهي بعد يوم النحر ، قيل سميت بذلك لأن لحوم الأضاحي تعرق فيها أي تقدد في الشرقة وهي الشمس ، وقيل تشريقها تقطيعها وتشريحها

(٣) في شرح العكبري : ما بين العذيب مفعول تذكرت ، ومجر بدل منه بدل اشتمال ، ويجوز أن يكون ظرفا للتذكر . وفي الشرح الذي رجع فيه البرقوقي إلى الواحدي وغيره : ما بين لك أن تجعله ظرفا لتذكرت ومجر بدل اشتمال كأنه قال مجر عوالينا فيه ، ولك أن تجعل ما زائدة وبين العذيب ظرفا لمجر .

وبيت مطالع سيفية يقول فيهما أبو الطيب :

وما الحسن في وجه الفتى شرفا له إذا لم يكن في فعله والخلائق

وما بلد الانسان غير الموافق ولا أهله إلا دنون غير الأصادق

وجائزة دعوى المحبة والهوى وإن كان لا يخفى كلام المنافق

## حول كتب الوفيات :

# عـــود على بدء (*)

للاســـتاذ أحمد الشرباصي

كنت قد نبهت أخي الأديب الأستاذ وديع فلسطين على صفحات مجلة « الرسالة » الغراء إلى أن كتاب « وفيات الأعيان » ليس كما يظن ويقول — كتاباً مقصوراً على ذكر وفيات المشهورين من الرجال ، بل هو كتاب تاريخ جامع ، فيه أخبار وأشعار ، وحوادث وقصص ؛ ولما نشرت هذه الكلمة لقيني أخي الأستاذ على محمد حسن المدرس بالأزهر الشريف فحادثني عن هذه الكلمة ، ثم ذكر لي أنه سمع بأن هناك كتاباً اسمه « وفيات الأعيان » غير كتاب ابن خلكان ، وقد اقتصر صاحبه على ذكر وفيات من عرف من الرجال ، وأن هذا الكتاب موجود بدار الكتب المصرية بالقاهرة ... !

شغلني هذا الموضوع ، فعجلت بالذهاب إلى الدار ، وأخذت أراجع فهارس كتبها المخطوطة والمطبوعة لأستنبئها عما فيها من كتب تسمى بالإسم المذكور أو تقاربه ؛ فوجدت فيها كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، وهو أشهر من أن يعرَّف ؛ ووجدت فيها كتاب « فوات الوفيات » لمحمد بن شاكر بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ؛ وهو كتاب متوسط ، يقع في مجلدين ، مطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق ، في عهد الخديوى إسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ هـ ؛ وأنتهز هذه الفرصة لأقول إن هذه الطبعة مملوءة بالتحريفات والتصحيفات والأخطاء الطبعية مما تقذى منه العين ، ويضج له الطالع ، على الرغم من أن الطابع أحصى في أول كل مجلد منهما جانباً كبيراً جداً من الأخطاء والغلطات المهمات ، وترك الباقي لفطنة القارىء الأديب اللبيب كما يقول ... ! (١)

وكتاب الوفيات للكتبي يعتبر كتذييل أو تتميم لوفيات ابن خلكان ؛ وقد أوجز المؤلف عمله في كتابه ، ومجهوده في مؤلفه في المقدمة الطويلة التي قال فيها بعد البسملة والحمدلة والصلاة على الرسول والآل :

« وبعد ، فإن علم التاريخ مرآة الزمان لمن تدبر ، ومشكاة أنوار يطلع بها على تجارب الأمم من أمعن النظر وتفكر ، وكنت ممن أكثر لكتبه المطالعة ، واستجلى من فوائده المراجعة ، فلما وقفت على كتاب ( وفيات الأعيان ) لقاضي القضاة ابن خلكان قدس الله روحه — وجدته من أحسنها وضعاً ، لما اشتمل عليه من الفوائد النزرة ، والمحاسن الكثيرة ، غير أنه لم يذكر أحداً من الخلفاء ، ورأيته قد أخل بتراجم فضلاء زمانه ، وجماعة ممن تقدم على أوانه ، ولم أعلم أذلك ذهول عنهم ، أم لم يقع له ترجمة أحد منهم ، فأحببت أن أجمع كتاباً يتضمن ذكر من لم يذكره من الأئمة الخلفاء ، والسادة الفضلاء ، وأذيل من وفاته إلى الآن ، فاستخرت الله تعالى ، فانشرح لذلك صدرى وتوكلت عليه وفوضت إليه أمرى ، وسميته بـ « فوات الوفيات » ؛ والله تعالى المسئول أن يوفق في القول والعمل ، وأن يتجاوز عن هفوات الخطأ والزلل » .

ثم أخذت أقلب بين يدى صفحات « الفوات » فإذا أنا أقع في نهايته على نص مهم لمصححه الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني ، إذ أن هذا النص قد تحدث عن كثير من الكتب التي ألفت في الوفيات كتذييل لكتب سابقة أو تعليق على مؤلفات متقدمة ، وقد كفاني هذا النص مئونة البحث والتنقيب عما تحدث عنه من كتب ؛ قال :

« واعلم أن الوفيات قد اشتمل على ٨٤٦ ترجمة ، وذيل عليه عبد الباقي المخزومي المكي المتوفى سنة ٨٤٣ ؛ كما تقدم في هذا الكتاب ؛ بنحو ثلاثين ترجمة ؛ وكذا ذيل حسن بن أيبك المتوفى بالتاريخ المذكور ؛ وذيل عليه عبد الباقي الشيخ زين الدين عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ ؛ وأما هذا الفوات فإنه اشتمل على ٥٧٢ ترجمة ، منها نحو ست تراجم أو سبعة مذكورة في الوفيات فليست من الفوات كما يعرفه من استقصى فهارس الكتابين ؟ وأما كتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي الذي انتهى فيه إلى آخره سنة ٧٦٠ قبل وفاته بأربع سنين فإني كنت أتوهم أنه ذيل آخر للوفيات غير موجود بمصر ، حتى كتبت ذلك ببعض الهوامش بناء على هذا التوهم ، إلى أن رأيت

(*) انظر العدد ٦٨١ .

(١) ألا من طبعة حديثة مصححة لذلك الكتاب الجليل ؟ .

في كشف الظنون أنه كتاب حافل جمع فيه تراجم الأعيان ونجباء الزمان، ممن وقع عليه اختياره، فلم يغادر أحداً من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعمال والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والأولياء والصلحاء والنحاة والأدباء والشعراء والأطباء والحكماء وأصحاب الملل والنحل والبدع والآراء وأعيان كل فن ممن اشتهر أو أتقن إلا ذكره؛ إلى أن قال في (الكشف): فازداد النفع به للمحدث والأديب» !.

وظاهر من عبارة الشيخ نصر الهوريني أن هذه الكتب التي ذكرها ليست مقصورة على ذكر «وفيات» فقط؛ أما فيما يتعلق بكتاب الصفدي فواضح بعد ما عرفناه من حديث كشف الظنون عنه؛ وأما فيما يتعلق بالكتب الباقية فلأنها تذييل لوفيات الأعيان، فتكون على طريقته: وقد عرفنا من قبل طريقة ابن خلكان في الترجمة والتاريخ.

فلنواصل البحث إذن في فهارس الدار، علنا نجد ذلك الكتاب الذي سمع به ذلك الزميل ... ! هأنذا أجد أخيراً كتاباً اسمه «الوفيات» لمن يسمى تقي الدين محمد بن هجرس بن رافع المولود سنة ٧٠٤ هـ؛ فلعله الكتاب المنشود، ولعلي أفوز بعد طول العناء بالمقصود ...

طلبت الكتاب للاطلاع عليه في قاعة المطالعة بالدار (وهو مخطوط) فلم أوفق لتحقيق ذلك، لأن المشرفين على دار الكتب في هذا الميدان لا يحسنون معاملة الطالبين، فتارة يقال لي: وضح الجزء المطلوب!. وتارة يقال لي: إن الكتاب لدى حضرات موظفي الدار!. وتارة يقال لي إن الكتاب في الخارج ...! وأخيراً قيل لي بعد أن استعنت بموظف في الدار: إنه موجود في المنارة ...!

فلم أجد أمامي إلا أن أعود إلى الفهرس المفصل المطبوع، علّي أجد فيه تلخيصاً لطريقة الكتاب؛ وفعلا وجدت هذا التلخيص، وقد جاء فيه، تحت عنوان: «الوفيات» برقم (١٣٦م) ما يلي:

«تأليف تقي الدين محمد بن هجرس بن رافع، المولود في شهر ذي القعدة سنة ٧٠٤ هـ، المتوفى في اليوم الثاني عشر من شهر جمادى الأولى، وقيل في اليوم الرابع عشر من جمادى الآخرة من السنة المتقدمة (؟) (١) بدمشق؛ وهو ذيل على تاريخ الحافظ أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف الملقب علم الدين البرزالي الشافعي الدمشقي المولود في شهر جمادى الأولى سنة ٦٦٥ هـ في العشر الأخيرة من ذي القعدة، أو في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة سنة ٧٣٩ هـ حينما كان محرماً بالحج ... انتهى البرزالي في تاريخه إلى آخر سنة ٧٣٦ هـ وابتدأ المؤلف ذيله من سنة ٧٣٧ وانتهى فيه إلى سنة ٧٧٣هـ، وفي آخره ترجمة الفيروزابادي وترجمة تمربغا، نقلا عن المورد الصافي، لابن تغري بردي؛ نسخة من مجلد، مخطوطة، بقلم معتاد، منقولة من خط الحافظ الشهير بابن ناصر الدين، وقوبلت عليه» ... !

إذن ليس هذا الكتاب أيضاً مقصوراً على ذكر الوفيات، بل فيه تراجم وتواريخ؛ وقد وقفت فهارس الدار التي بين يدي عند هذا الحد، فأين إذن ذلك الكتاب الذي سمع به ذلك الصديق، والذي يؤكد وجوده ويقول إنه لم يذكر فيه إلا وفيات الأعيان من الرجال؟ ... «وفوق كل ذي علم عليم»؛ ولذلك رأيت أن أكتب هذه الكلمة على صفحات الرسالة الغراء علّه يوجد بين قرائها من يعرف شيئاً عن هذا الكتاب المنشود، فينبئنا بخبره، ويقص علينا طرفاً من أمره، والحقيقة بنت البحث.

**أحمد الشرباصي**
المدرس بالأزهر الشريف

(١) هكذا في الأصل، ولم تسبق سنة الوفاة، وإنما السابقة سنة الميلاد، ولعله سهو.

صفحة مطوية من الأناشيد القومية :

# أذكروا ...

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

يا بنى النيل وأحفاد الأُولى
أطلعوا الفجر على الكون القديم
رفعوا الأهرام رمزاً للعُلا والبرايا فى كهوف وهشيم

***

أذكروا أن ثرى هذا البلد من تجاليد الجدود العظماء
لا تعلتْها أرجل العادى الألد ويكم أبناءهم بعض الدماء
تربُها التبرُ المصفَّى المتّقد
لا الذى يقنى الشحاح الأدنياء
فامنعوا كنزكم أن يبذلا أو فعيشوا عمركم عيش عديم
لن تروا فى الأرض عنه بدلا مالكم كنز سوى هذا الأديم

***

أذكروا أن عليكم واجباً لبنينا فى بطون الأعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا فهو حق الوارث المنتظر
نتقاضى الإرث عصراً ذاهباً فلنصنه للعصور الأخر
سنؤديه إليهم أكلا لم يغيّره زمان أو خصيم
فحمى مصر حماه النبلا وبنوها خير من يحمى الحريم

***

أذكروا حاضركم كيف يقام ليس يغنينا تليد القدماء
ما التماثيل المهيبات الجسام وأبو الهول رهين الصحراء!
ما المسلات على باب الرجام والنواويس وفيها الموميا !
ما عظيم فى التواريخ خلا فى ثنايا حاضر غير عظيم
فاجعلوا عهد العلا متصلا كاتساق الدر فى العقد النظيم

***

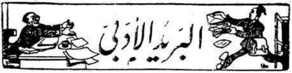
أذكروا مهما بلغتم سؤددا أنكم لم تبلغوا أوج الكمال
أبعدوا فوق المنال المقصدا فبنو الشمس لهم أقصى المنال
كم عبدنا قرصها المتقدا فاتقدنا فى جهاد ونضال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكلا خالداً فى ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس إلى يوم لا يبقى لها قرص ضريم

***

أذكروا أن التفانى والغلاب فى سبيل المثل الأعلى البعيد
نفثا فيكم وأنتم من تراب شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفّى النفس من رجس الوجود
فاضرموا فى النفس هذى الشعلا
أضرموها تكفلوا الفوز العميم
مثلما أضرمت النار على مذبح الرب بمحراب كريم

***

أذكروا ذلك وامضوا قدماً لا تكن وجهتنا غير الأمام
نوحّينا دقة القلب كما يقرع الطبل لجرار لهام
فلنسيغ الموت صوناً للحمى
ونذيل السمر سمياً واعتزام
فيحق نحن أحفاد الألى
أطلعوا الفجر على الكون القديم
رفعوا الأهرام رمزاً للعلا لا يدانى شأوه غير النجوم




## وفاة الكاتب الانجليزي هـ . ج ويلز :

توفى بعد ظهر اليوم الثالث عشر من أغسطس الكاتب الانجليزي الألمعي هـ . ج ويلز عن ٧٩ عاما قضاها فى خدمة الفكر البشرى يفكر للقادة ويكتب للناس ويعمل للأدب ، ويكشف لركب الخليقة مجاهل الطريق ومعامى المستقبل ؛ حتى أضاف للثروة الأدبية العالمية محصولا من الانتاج الممتاز فى السياسة والتاريخ والقصص يتسم بالبحث العميق والنظر البعيد والألمعية الصادقة . نشأ ويلز نشأة متواضعة وكان بعد أن ترك المدرسة صبياً بتاجر أقمشة ثم مساعد الصيدلى ثم وكيلا لاحدى المدارس الأهلية . وكان من أوفر كتاب عصره إنتاجاً وأذيعهم شهرة وأكثرهم قراء حتى بيع من كتابه ( معالم التاريخ ) مليون ونصف مليون نسخة . وقد انتابه فى سنيه الأخيرة مرض الديابيطس واعتراه ضرب من الهم على مصير العالم ومستقبل السلام . وقد تنبأ بالقنبلة الذرية فى كتابه الذى أصدره فى عام ١٩١٤ بعنوان ( العالم صار حراً ) ، وقد عاش حتى رآها تخرب المدن وتهدد الحضارة . وفى بعض أعداد الرسالة من هذه السنة فصل عن أدبه يفيدك أن ترجع إليه .

## معجم ألفاظ القرآن الكريم :

ألفت لجنة من بعض أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية لوضع معجم لألفاظ القرآن الكريم مفسرة تفسيراً يجمع بين الدقة والوضوح ، واللجنة مؤلفة من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر والدكتور حسين هيكل باشا وعلى الجارم بك والشيخ محمد الخضر حسين والشيخ ابراهيم حمروش . وقد اختار هؤلاء الأعضاء مساعدين لهم من بين المشتغلين باللغة والأدب من أساتذة الجامعة ودار العلوم والأزهر ، ومحررى المجمع .

## مطبوعات المجمع اللغوي :

وافقت الجهات المختصة على صرف كميات من الورق لمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وسيشرع المجمع فى طبع مجلته ومجموعات محاضره التى تعطلت عن الظهور منذ عام ١٩٣٩ .

ومما يذكر أن المجمع لم يصدر من مجلته إلا أربعة أجزاء ولم يصدر من محاضر مؤتمراته إلا أربع دورات مع أنه أتم الآن اثنتى عشرة دورة .

وقد أعد المجمع فعلا الجزء الخامس من المجلة وينتظر أن يصدر فى أول السنة المقبلة .

## علم الاجتماع الديني :

« قل ما شئت من خير فى الأدب العربى الحديث ، وسمه كيف شئت . فهو أدب عالى ، وهو أدب حى . وإنك لتجد فيه شعراً غزير المادة وخيالا خصباً فى عنفه ولطفه ، وإنك لتجد فيه قصصاً جذابة صادقة الاحساس جميلة التصوير .

« ولك أن تطلق على ثقافتنا ما يروقك من النعوت . ولك أن تحلى جيدها بما يعجبك من جميل الألقاب . فإنك لتقرأ فيها من الانتقاد دقيقه وتصيب من الفن جليله .

« لك ما تشاء ، ولكن ، ناشدتك المولى ، لا تنعت أدبنا الفكرى ولا ثقافتنا بالعلمية ، لأنك لا تجد فى أدبنا تفكيراً بحتاً ولا فى ثقافتنا علماً صرفاً . ولست بهاضم لحقوقهما إذا قلت أن أضعف ما فيهما التفكير وأقوى ما فيهما الخيال » .

بهذا التصوير قدم الأديب السورى الأستاذ يوسف باسيل شلحت كتابه « علم الاجتماع الدينى » ويتحدث فيه عن أكثر الأديان بدائية عند الخلف المتخلفين من قطان استراليا والقبائل المتأخرة فى بقاع العالم . وهى مقدمة أحسب أن فيها تجنياً كبيراً على الأدب العربى وليس أدل على ذلك من أن المؤلف ذيل كتابه بقائمة مراجع عربية للأساتذة الدكتور هيكل باشا ونقولا الحداد وجرجى زيدان والريحانى وسواهم ممن كتبوا كتباً علمية نفيسة ، فضلا عن أنه أشار فى مستهل كتابه إلى مؤلفى الدكتور

علي عبد الواحد وافي في علم الاجتماع وهما كتابان خيّران ، وإلى باقي مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية .

وكتب الأستاذ شلحت توطئة عن علم الاجتماع انتقل إثرها إلى البحث عن تعريف « للديانة » فلم يضع لنا تعريفاً شاملا ، بل أشار إشارات عابرة إلى تعريفات وضعهــا بعض فلاسفة الفرنسيين والألمانيين ومعظمها سطحي . وهناك تعريف للديانة لم يشر إليه الأستاذ شلحت وقد أورده الأستاذ رايت W.K. wright في كتابه « فلسفة الأديان » وهو : « إن الدين محاولة لاحراز القيم الاجتماعية المعترف بها وصيانتها عن طريق أداء أفعال معينة يُقصد بها الاستعانة بوسيط معين يختلف عن الذات الشخصية للفرد ، وعن جميع الكائنات البشرية ، مع الشعور بالاعتماد على هذا الوسيط » .

وأعتقد أن هذا التعريف أشمل ما وُضع ، لأنه يستطيع أن يحتضن معظم الأديان المعروفة ، فطرية وحضرية . ولا ريب في أن التواضع على تعريف معين أمر غير يسير ، وقد أصاب الأستاذ سيلرز Sellers عند ما قال : « إن معظم الأشياء الفائقة القيمة يصعب تعريفها على حد سواء » .

وكتاب « علم الاجتماع الديني » من الروّاد في هذا الباب ، ويكاد يكون أشمل كتاب صادفني باللغة العربية في علم فلسفة الأديان . غير أن المؤلف لم يُشر إلى الديانات البدائية سوى إشارة خاطفة ، وقصر معظم كلامه على الحديث عن « الطوطمية[1] » .

وكنا نودّ أن يفيض في البحث في الأديان الأخرى المميّزة عن شؤون الحياة « كالتودا » و « الياجاندا » و « الفيــدا » و « المانا » لأن الاشارة الخاطفة إلى بعضها لا تكفي في مثل هذا البحث .

وختم الأستاذ شلحت كتابه بفصل رائع عن مستقبل الديانات قال فيه « إن الديانة لن تظل على ما كانت عليه في الأعصر الأولى تقيّد حركة الأفراد وتمنع عنهم سبل التفكير الحرّ . فان التطور الدينيّ يحملنا على الاعتقاد أن العقول متجهة إلى التخفيف من نير رجال الدين عن رقاب العباد وإلى التقليل من هول الدين في أعين الناس » . ولست أذهب إلى الاتفاق معه على هذا الرأي ولكني أرى أن الانسان متى أقلع عن الإثم لأنه إثم لا لأن الدين يحضه على ذلك ؛ وإذا فعل الخير لأنه يرى أنه خير لا لأن الدين يحثه على ذلك ، أصبح الانسان في حالة دينية سامية ، لأنه بتصرفه ذاك يجعل الدين جزءاً من حياته اليومية ، شائعاً في جنبات روحه حتى ليمحى الفصل بين روح المرء ودينه . أما التظاهر بالتدين والتباهي بالقداسة وممارسة الفرائض الدينية بطرق آلية ، فهذا امتهان للدين أكثر منه إكراماً له .

**وديع فلسطين**

(١) Totemisme . وأوثر أن تكتب « الطوطمية » وحبذا لو قرأ المؤلف مقالا في المقتطف في عدد فبراير ١٩٤٦ « الأديان البدائية »

## تصويب :

جاء في مقال ( شريعة الكمال والخلود ) المنشور بالعددين ٦٨١ ، ٦٨٢ من « الرسالة » بعض الأخطاء المطبعية نصححها فيما يلي :

| | |
|---|---|
| الوذبلة = المرآة | وصحتها : الوذيلة المرآة |
| توهموا | وصحتها : توهمهم |
| ولا ريب | وصحتها : لا ريب |
| ولدحض هذه الحجة | وصحتها : ولإدحاض |




قصة من الأدب الروسي الرفيع :

# الملاك ...

للفيلسوف الروسي الكبير لوى تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

— ٣ —

طفقت المرأة تحدثهم بقصة هاتين الطفلتين ... وقد شاع الحزن في صوتها ، وارتسم الألم على جبينها فقالت : « إنها لقصة فاجعة ... ! لقد قضى أبوهما يوم الثلاثاء ، ولحقت به أمهما يوم الجمعة بعد أن وضعتهما ... وكنت أنا وزوجي نعيش ككل الفلاحين في بساطة عيش ودقة حال ، وكانت دارنا مجاورة لدارهم . لقد مات أبوهما وكان يقطع الأخشاب في الغابة تحت جذع شجرة هوت عليه من حالق ، فسحقته وفاضت روحه قبل أن يبلغوا به الدار

وبعد ثلاثة أيام . وضعت زوجته هذين التوأمتين — ولم يكن لها من ناصر أو معين فوضعتهما وحيدة ... ولقيت منيتها وحيدة ... ! وفي اليوم التالي توجهت إليها ، أنظر ما آلت إليه حالها ... فما كدت أتخطى الكوخ ، حتى وجدتها متيبسة الجسد وقد علت وجهها صفرة الموت ... وتدحرج جسدها فوق هذه الطفلة ، فأصاب ساقها العرج ... !

وجاء القوم من القرية — وكلهم حزين ، يأكل قلبه الألم — فكفنوها في خال وحملوها إلى المقبرة ، ودفنوها جوار زوجها ... لقد كانت الطيبة تملأ نفوسهم والعطف يفيض من قلوبهم ... ! ولكن هاتين الطفلتين أصبحتا ومالهما من ولي أو كفيل ... وكنت حينئذ المرأة الوحيدة في القرية التي عندها طفل لم يتجاوز أسبوعه التاسع ... فضممتهما إلى صدري ... وعدت بهما إلى كوخي . فلما اجتمع الفلاحون راحوا يفكرون ويطيلون التفكير في أمرهما ، وأخيراً ، قالوا لي : عليك العناية بهما الآن ياماري ... وسوف ندبر أمرهما فيما بعد ... ! »

فأخذت على عاتقي أن أرضع هذه الطفلة الصحيحة ، وأدع العرجاء ... فما كنت أحسب أنها ستعيش . ولكني تساءلت : بأي ذنب تعاني هذه الطفلة ألم الجوع ؟ ! فما لبثت الرحمة أن فاضت بين جوانحي ... فرحت أرضعهما مع طفلي ... وقد كنت لبانة يتفجر اللبن من ثديي في فيض لا ينقطع ، وكان الله يأتيني برزق هاتين الطفلتين ... فترعرعتا على حين توفى الله طفلي الوحيد ، قبل أن يبلغ السنتين ... وقد أقبلت علينا الدنيا بعد انصرافها عنا ... فزاد حبي لهما وحناني عليهما ...

أفعلمتم الآن سبب ذلك الحب ؟ ! إنهما سعادتي في هذه الحياة ، وأملي في هذه الدنيا ... ! » وضمت « السيدة » الطفلة العرجاء إلى صدرها بإحدى يديها ، بينما ارتفعت يدها الأخرى لتمسح دمعة حارة تحدرت على خدها فتنهدت « مترونا » ... وقالت في صوت عميق وجرس ندي : « صدق من قال » يعيش المرء بغير والديه ! ولكن لا يعيش بغير الله ... ! »

وران الصمت عليهم ... ! وفجأة انبثق في الكوخ نور باهر كأنه وميض البرق في ظلمات الشتاء ... وشع الضوء من ذلك الركن الذي يجلس فيه « ميشيل » ... فالتقت عنده أبصارهم . وهو على كرسيه يحدق في سماء الغرفة . وقد افتر ثغره من ابتسامة حلوه ... أشرقت في وجهه وأضاءت على جبينه ...

فلما تهيأت المرأة للذهاب . حيتهم ... وأمسكت بطفلتيها . ومضت بهما ... فنهض « ميشيل » من جلسته ... ووضع ما كان بيده وخلع عنه مئزره ... ثم انحنى لسيمون وزوجته « مترونا » وقال في صوت شكور « وداعاً ... أيها السادة ... لقد عفى الله عني ... ! وغفر لي ذنبي ... »

وراح ميشيل يتألق في ضياء تنبعث من هالة حوله ... فانحنى سيمون وقال في صوت ملؤه العجب « لقد حدست إنك لست ببشر ياميشيل ... وإن أثقل عليك بتساؤلي ... ولكن آمل أن تخبرني : لماذا تألق وجهك حينما عثرت عليك في الطريق عرياناً جائماً ؟ ! ولماذا ابتسمت إلى زوجتي تلك الابتسامة الوضيئة حينما قدمت إليك الطعام ؟ ! وحينما دخل ذلك « السيد الجليل » كوخنا ،

لتصنع له حذاء إفتر ثغرك عن بسمة مثيلة بها ؟ . وأخيراً حينما أتت هذه السيدة مع هاتين الطفلتين تألق وجهك بابتسامة ثالثة فى جلال وبهاء ...

نشدتك الله ياميشيل أن تطلعنى على سر ذلك الإشراق ، وعلة هذه الابتسامات الثلاث ؟ ! ! » ...

قال ميشيل فى صوت هادئ رخيم « لقد انبثق الضوء عنى وأشرق النور منى لأن الله يعاقبنى ... بيد أنه عز وجل غفر لى ذنبى أخيراً ! ... والسر فى تلك الابتسامات الثلاث أن الله أرسلنى كى أتعلم ثلاث حقائق ... وقد تعلمتها ... !

لقد تعلمت واحدة حينما فاضت الرحمة من قلب زوجتك ... فكانت الابتسامة الأولى ! !

وتعلمت الثانية حينما سمعت ذلك « السيد » يتحدث عن حذائه ، فكانت الابتسامة الثانية ! !

وتعلمت الثالثة عندما رأيت هاتين الطفلتين ... فكانت الابتسامة الثالثة . ! »

فقال سيمون فى دهش ورجاء « خبرنى لماذا عاقبك الله يا ميشيل ؟ وما هذه الحقائق الثلاث ؟ ! »

فأجاب ميشيل فى صوته الهادئ الرخيم « لقد عاقبنى الله لأنى عصيت له أمراً ... لقد كنت ... ملاكا أسبح فى ملكوته الأعظم ... فأنزلنى ذات يوم إلى الأرض لأقبض روح امرأة من خلقه ... فأبصرتها راقدة على سريرها وحيدة — وقد وضعت توأمين ! — فلما أحست دنوى منها ، أدركت أنى رسول الله إلى روحها ... فقالت وقد كادت أن تحبس صوتها الدموع :

« أيها الملاك ... لقد مات زوجى منذ أيام وما لى من أخت أو عمة أو ولية ترعى طفلتى ... فلا تقبض روحى ! ودعنى أرضعهما وأرعاها حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت ! ! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم ! . »

فأصغيت إلى حديثها الرقيق الرفيق ... ووضعت إحدى الطفلتين على صدرها والأخرى على ذراعها ... وانثنيت آيباً إلى الله تعالى فى السماء ... وقلت فى خشوع « إنى عاجز عن أن أقبض روح هذه الأم ... لقد قتل زوجها تحت جذع شجرة منذ أيام ... وولدت لها اليوم توأمتان ... وتوسلت إلى ألا أسل روحها قائلة « دعنى أرضعهما وأرعاها حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت ! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم . ! »

« فعدت ويدى عاطلة من روحها ! . » فسمعت الصوت العلوى يردد الأمر الجليل « إذهب ... فاقبضها ولا تكن عودتك إلى السماء قبل أن تتعلم حقائق ثلاث » :

« ما الذى فطر عليه الإنسان ؟ ! »

« ما الذى حرم منه الإنسان ؟ ! »

« ما الذى يعيش به الإنسان ؟ ! » .

فعدت طائراً إلى الأرض — وأنا أرتعد فرقاً من غضب الله وأنتفض جزعاً من عقابه . فقبضت الروح ... وسقطت الطفلتان من على صدرها ، ومال جسدها على جانبها ، فحطم ساق إحدى الطفلتين فالتوت ... وهممت بأن أصعد إلى السماء أحمل الروح إليها . ولكن الريح أثقلتنى وأخذت أجنحتى تتضاءل وتنسل من ظهرى ... فصعدت « الروح » وحدها إلى الله ... بينما سقطت أنا على الأرض فى جانب من الطريق ! . »

فغر سيمون فاه ... ونظرت « مترونا » فى بلاهة يشوبها الدهش ... لقد أدركا الآن من كان يضمه دارهم ويعيش بينهم ويأكل من طعامهم ... فترقرقت الدموع فى عيونهما ... وراحا يبكيان فى نشيج ومزيج من الرهبة والمرح . والإجلال والفرح

وانطلق الملاك يقول : « لم أكن أعرف حاجات البشر من جوع وعرى حتى صرت بشراً مثلهم ... كنت وحيداً ... يهرؤنى القر ، وانضور من الجوع ... ولا أدرى ما الذى أفعله فى هذا العالم

وامتد طرفى ... فلمحت كنيسة على مرماه ... فتوجهت إليها عسانى أجد ثمت موئلا ... بيد أنها كانت مغلقة ... فتوجهت إلى ما وراءها ... حيث قعدت اتوقى بها الريح الصرصر التى تسفح الوجه ، وتصك الجسد ... !

فلما غشى المساء عيون الكون ... رأيت إنساناً يقبل وحيداً على ... وبينه وبين نفسه حديث ... ولأول مرة رأيت وجه الإنسان ... ذلك الوجه المخيف الميت فأشحت عنه برأسى ... وطرق سمعى ذلك الحديث أو تلك الخواطر التى كانت تضطرب بينه وبين نفسه ... وتنعكس على شفتيه فيرتفع بها صوته ... كان يتساءل كيف أنه يقى جسده لفحة البرد وقشعريرة الشتاء ، ويغذى زوجته وصغاره بماله اليسير ...

فرمت أفكر « هذا إنسان يدبر ملبساً له فى الشتاء ... وطعاماً لعائلة ... فكيف يقدم لى يد المساعدة ؟ ! » فلما لمحنى اضطرب فرقاً وجزعاً ومر بى فى الجانب الآخر من الطريق ...

فتداركنى اليأس ، لولا أنى أبصرته ينقلب راجعاً إلى ... فرفعت إليه بصرى فلم أعرفه ... لقد كان يرتسم الموت على جبينه ... أما الآن فسوف يعيش ... لقد عرفت فى شخصه وجود الله عز وجل . ! ألبسنى ثوباً عليه ، وأخذنى معه إلى داره حيث وجدت من هى أقسى قلباً وأشد كلاماً ، لقد شاع فى صوتها الموت ، وأبصرت من حولها الهلاك ... كانت تود لو ألقت بى إلى قارعة الطريق ... ولو أنها فعلت ذلك لكان الموت من نصيبها . !

فلما بدأ الرجل يحدثها عن الله عز وجل ، لان قلبها ومال إلى فؤادها ... فأحضرت لى الطعام ، ونظرت إلى وجهى فى عطف وشفقة ... فعرفت فى شخصها وجود الله ...

فتذكرت أولى الحقائق الثلاث التى أمرنى الله بأن أعلمها « ما الذى فطر عليه الإنسان ؟! . »

فأدركت أن الذى فطر عليه الإنسان هو « الحب » !! وقد تولتنى البهجة حينما علمت أن الله أوحى إلى بالدرس الأول ... فافتر ثغرى عن الابتسامة الأولى ... ولكن بقى على أن أتعلم الحقيقتين الأخرتين : « ما الذى حرم منه الإنسان ؟! » و « ما الذى يعيش به الإنسان ؟! »

« مضى عام وأنا أعيش بينكم .. فلما أتى ذلك السيد الجليل يأمرنا بصنع حذاء له على ألا يبلى أو يخلق قبل أن تنقضى سنة على ذلك ... نظرت إليه .. وعلى حين غره لمحت فوق رأسه رفيقى « ملاك الموت » ولم يره أحد سواى ... ولكنى عرفته ، وأدركت أن الشمس لن تغيب عن الأفق إلا وقد غابت روح ذلك الرجل عن جسده ... فتعجبت ... إن هذا الرجل يعد العدة لعام بأكمله ... ولا يحسب أن قضاءه قد حم ... وأن المساء لن يأتى عليه إلا وجثته مسجاة هامدة ... »

فتذكرت الحقيقة الثانية ، فكأن الله يوحى إلى أن تعلم « ما الذى حرم منه الإنسان ؟ » فابتسمت للمرة الثانية ...

ومكثت أنتظر أن يوحى إلى الله بالحقيقة الثالثة « ما الذى يعيش به الإنسان ؟! »

وفى العام السادس . جاءت امرأة ومعها توأمتان صغيرتان فعرفت الطفلتين وعرفت أن الله قد قيض لهما من كان أحن عليهما من أمهما ... فعاشتا وترعرعتا . !

ولما سمعت ما قصته علينا من كفلتهما رحت أفكر مستغرقا « لقد توسلت إلى الأم أن أدعها حية حتى ترعى الطفلتين ... الضعيفتين ... واعتقدت أنها على حق حينما قالت « إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم ... » بيد أن امرأة غريبة عنهما كفلتهما حتى نمتا وشبتا ... وأدركت مبلغ ذلك الحب الذى يختلج بين جوانح تلك الظئر الحاضنة ... فرأيت فى شخصها وجود الله ... وتعلمت الحقيقة الثالثة وهى « ما الذى يعيش به الإنسان ؟! » ... إنه « الحب » ... وعلمت أن الله أوحى إلى بالدرس الأخير ... وأنه عفى عما تقدم من ذنبى ومن عصيان أمره على غير بصيرة ... فكانت الابتسامة الثالثة !! . »

أضحى « الملاك » وهو عار مما عليه ... يشع من جسده نور قوى يبهر الأبصار ... وراح صوته يخفت وينخفض حتى صار ، وكأنه لا يأتى من فيه ... بل يأتى ... من السماء ... !

« لقد علمت أن البشر لا يعيشون بالحرص على حياتهم ... بل بالحب المغروس فى قلوبهم وهل نفع حرص الأم على بنتيها ؟! لا بل كان حب الظئر لهما ! ! .

ولقد عشت — عند ما كنت إنساناً — لا بالحرص على حياتى ... بل بالحب الذى يختلج بين جوانح عابر سبيل ... وبالرحمة والعطف الذى انبثق فى فؤاده هو وزوجته على ...

إن الحب شىء فطر عليه الإنسان وغرس فى قلبه ... وعليه يعيش وبه يحيا فى هذه الدنيا ... ! وكنت احسب أن الله وهب الحياة للبشر ، ومنحه الأمل فى أن يعيش ... بيد أنى الآن علمت أشياء أخرى ... ! علمت أن الله لم يخلقه كى يعيش وحيداً فريداً . بل خلقه ألوفاً ساعياً للارتباط بغيره ... عرفت أن المرأ مع تخيله أنه يعيش بالحرص على حياته ... فهو يعيش فى الحقيقة بالحب ... لأن من كان الحب يملأ قلبه ... ففيه نفحة من الله ... فالله عز وجل هو الحب ... والحب هو الله !! ... »

ثم ارتفع صوت « الملاك » فى جرس ندى يردد أنشودة ملائكية يحمد فيها الله ويثنى على آلائه ! ! فكان الكوخ والأشجار والطيور تتراقص وتهتز وكأنها تسبح بآيات الله ... وانحسر سقف الكوخ حيث ارتفع عمود من النور يربط السماء بالأرض ... نخر « سيمون » وزوجته وأطفاله وقد ملكت نفوسهم الرهبه والخشوع ، وملأت قلوبهم الخشية والإجلال ! .

ونبت « للملاك » جناحان على كتفيه ... حيث راح يسبح بهما مصعداً إلى السماء ... !

فلما أفاق « سيمون » ... وراح يقلب طرفه فيما حوله ... رأى الكوخ وقد أصبح كما كان .. وليس فيه سوى زوجته « مترونا » وأطفاله الصغار ...

**مصطفى جميل مرسى**